
الطرود السبعة
كل طرد يحمل سراً...
والسر السابع يخصك أنت
علي ابراهيم خليل الخفاجي

رواية

الطرود السبعة



كل طرد يحمل سرا... والسر السابع يخصك أنت.

علي إبراهيم خليل الخفاجي

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف.

هذه رواية أدبية خيالية، وأي تشابه بين شخصياتها وأحداثها وأماكنها وأشخاص أو وقائع حقيقية هو محض مصادفة.

إهداء

إلى كل من حمل ندبة بصمت،
وإلى كل يد اختارت أن تساعد في الإصلاح.

الفهرس

محطّات الحكاية

التمهيد | قبل أن تُغلق الدار رسالةٌ تُطوى في ليلةٍ ستظلّ حاضرة.	5
الفصل الأول | الساعة المتوقفة (03:14) طردٌ أول يوقظ سؤالاً ظلّ ساكنًا أعواماً.	6
الفصل الثاني | المفتاح بلا قفل مفتاحٌ غريب يقود سالم إلى بابٍ منسي.	13
الفصل الثالث | المرآة المشروخة صورة قديمة تعيد وجهاً لا يريد الذاكرة تسميته.	19
الفصل الرابع | الرسالة المحترقة ما نجا من النار يحمل اعترافاً ناقصاً.	25
الفصل الخامس | البوصلة التائهة خريطةٌ تصل الأسماء بليلة دار السراج.	31
الفصل السادس | الصندوق المغلق سجلّ قديم يترك للحقيقة منفذاً.	37
الفصل السابع | القطعة الأخيرة الطرد الأخير يضع سالم أمام ما كتبه لنفسه.	43

تمهيد

قبل أن تُغلق الدار

«قد تنجو الحقيقة من النار، لكنها تحتاج إلى يدٍ ترفع عنها الرماد.»

في الليلة التي أُغلقت فيها دار السراج أبوابها للمرة الأخيرة، لم يكن المطر غزيراً، كان يكفي ليجعل رائحة الدخان أثقل عند العتبة. في الممر الخلفي، وقف فتى يراقب الماء ينزل من كمّه، لا يعرف إن كانت يده ترتجف من البرد أم من صفارة انقطعت قبل قليل. لم يكن في المبنى أحد يصرخ الآن، ومع ذلك لم يشبه الصمتُ النجاة.

مرّت نوال تحمل صندوقاً من السجلات. لم تسأله عمّا حدث؛ رأت الشاش الملفوف حول معصمه، وقالت إن المسعف ينتظره. أجابها: «بعد قليل». كان يريد أن يمر على رف القراءة، يلمس الحافة التي اسودّت، ويفهم لماذا تجمّد حين سمع الطرق. لم يجد جواباً في الرماد ولا على الجدار. لم يبقَ سوى مصباح احتياطي يرسم دائرة صغيرة على أرض مبتلة.

عند مكتب الإعارة، أخذ ورقة فارغة. كتب سطراً، محاه، ثم بدأ من جديد. لم يكتب اعتذاراً؛ لم يكن يعرف لمن يقدّمه. ولم يكتب دفاعاً؛ كان يعرف أن الخوف لا يكفي عذراً. كتب طلباً قصيراً، طواه بعناية، ومدّه إلى نوال.

قال: «احتفظي بها. لا تفتحيها الآن. إذا نسيتُ يوماً كيف أعود إلى هنا، أعيدي إليّ الأشياء التي لا أستطيع تسميتها».

نظرت نوال إلى الورقة ثم إليه. «وماذا إن لم تعد؟»

قال الفتى: «اتركيها في الدرج. لا أريد أن يقرر أحدٌ عني ما ينبغي أن أتذكره».

قبل أن يغادر، التفت إلى الباب الجانبي. ظل مواربا بمقدار إصبع، كأن الدار لم تحسم بعد: أتفتح أم تُغلق؟ دسّت نوال الرسالة في سجل المناوبة. لم تعرف كم عاماً ستبقى هناك، ولا أن الفتى سيعود إلى ورشة الترميم يوماً، وهو يظن أن إصلاح الأشياء يكفي.

الفصل الأول

الساعة المتوقفة (03:14)

«بعض الأشياء لا تتوقف حين تتعطل؛ إنها تنتظر فقط أن يسألها أحد عمّا رأته.»

كان الزقاق يستيقظ على مهل، كأن النهار يطرق أبوابه كيلا يزعج أحداً. عند السادسة والنصف، تفوح رائحة الخبز من المخبز، ثم قهوة أبي فواز وجرّ الكراسي المعدنية على الرصيف. تسقي أم رائد الريحان من نافذتها، ويخرج صبيّ من البيت الأزرق بحقيبة تكاد تبتلعه. لم تكن في العادات غرابة؛ لذلك كان سالم يعرف إن غاب منها شيء.

في آخر الزقاق، تحت شرفة حجرية أكلت الرطوبة أطرافها، كانت ورشته ذات الباب الأخضر. اكتفى بلوح نحاسي كتب عليه: «سالم — ترميم الساعات والتحف والكتب». في الداخل رفوف داكنة وعلب أجزاء دقيقة ومصباح طويل؛ وعلى المكتب ساعة جيب وكتاب بلا غلاف وطائر مكسور الجناح.

كان سالم في الثامنة والعشرين، لكنه يجلس إلى منضدته كمن يخشى إيقاظ أحد. يصغي إلى خلل الأشياء قبل أن يقرر من أين يبدأ. لم يؤمن بأن كل ما ينكسر يعود كما كان؛ آمن فقط أن ما يمكن إصلاحه يستحق المحاولة.

في ذلك الصباح، كان يفكّ غطاء ساعة حائط عتيقة حين مرّ أبو فواز عند الباب، حاملاً كوبين ورقيين.

قال: «أحضرت لك القهوة قبل أن تنسى أنك إنسان.»

رفع سالم عينيه. «أنا أتذكر ذلك عادةً عند الظهر.»

«إذن جئت مبكراً.» وضع أبو فواز الكوب على طرف المكتب، بعيداً عن الأدوات، ثم نظر إلى الساعة المفتوحة. «وهذه؟»

«تظن أنها تأخرت ثلاثين سنة.»

ضحك الرجل. «وأنت ستقنعها أن الوقت لم يفت؟»

«سأقنعها أن تعمل. أما الوقت فليس من اختصاصي.»

هز أبو فواز رأسه، وهو يعرف أن وراء كل جواب من سالم باباً صغيراً لا يفتحه صاحبه بسهولة. لم يسأله عن أهله، ولا عن السنوات التي لا يحب الحديث عنها. في الزقاق، كان الصمت أحياناً شكلاً من أشكال المودة؛ وفي أحيان أخرى، كان مجرد فراغ اعتاد الناس أن يتركوه في مكانه.

بعد أن مضى أبو فواز، عاد سالم إلى الساعة. كان النهار قد ارتفع، لكن الورشة بقيت هادئة. من الخارج تصل إليه أصوات متقطعة: دراجة تمرّ، امرأة تنادي ابنتها، باب يُغلق، ثم سكون. سكون الزقاق لا يشبه سكون الليل؛ فيه حركة بعيدة لا تكفي لتملأ المكان. أحياناً كان سالم يشعر أن الورشة تتسع حين يخلو الشارع، وأن الأشياء الموضوعة على الرفوف تنظر إلى أصحابها الغائبين.

قرابة الحادية عشرة، طرق أحدهم الباب.

لم تكن طرقة مندوب التوصيل السريعة، ولا طرقة زبون يعرف المكان؛ كانت طرقتين متباعدتين، ثم انتظاراً. مسح سالم أصابعه بقطعة قماش وفتح. وقف عند العتبة رجل لا يعرفه، يحمل صندوقاً مستطيلاً ملفوفاً بورق بني مربوط بخيط قطني. لم يحمل الصندوق شعار شركة، ولم يكن عليه سوى اسمه وعنوان الورشة، مكتوبين بخط واضح.

قال الرجل: «هذا لك.»

تسلّم سالم الصندوق. «من أرسله؟»

أشار حامل الطرد بكتفيه. «لم يذكروا اسماً. وصلني مع الأغراض هذا الصباح.»

«ومن هم؟»

ابتسم الرجل ابتسامة اعتذار. «لو كنت أعرف، لأخبرتك.» ثم مضى في الزقاق قبل أن يضيف سالم سؤالاً آخر.

ظل واقفاً لحظة عند الباب، والصندوق بين يديه. كان خفيفاً على نحو لا يناسب حجمه، والورق البني نظيفاً بلا خدش، كأنه لم يسافر بعيداً. أعاده إلى المكتب، وأغلق الباب. لم يحبّ أن يفتح أشياء مجهولة في عجلة، لكن الفضول سبق حذره بخطوة.

فكّ الخيط، ثم رفع الورق. تحتَه صندوق خشبي صغير، لا قفل له ولا علامة. كان الغطاء مثبتاً بشريط شفاف، وحين أزاله ظهر غلاف من قماش رمادي تحته ساعة جيب ثقيلة. لم تكن جديدة، ولم تكن ثمينة في زينتها؛ غطى البقع الداكنة وجهها الفضي، وامتد خدش رفيع قرب التاج. عقرباها ثابتان عند الثالثة وأربع عشرة دقيقة.

إلى جانبها ظرف أبيض، وتحته رزمة نقود مرتبة بعناية. فتح سالم الظرف أولاً. في ورقة صغيرة سطر واحد:

«أصلحها، وستفهم لمن تعود».

لم يكن في الورقة توقيع. لا تحية ولا تفسير، فقط العبارة مكتوبة بالحبر الأزرق. قلبها سالم إلى الوجه الآخر، ثم مرر إبهامه على حافتها. لم يعرف الخط، أو لم يستطع أن يقرر. أخذ النقود وعدّها مرة، ثم أعاد عدّها. كان المبلغ أكبر بكثير من أجرة إصلاح ساعة كهذه، حتى لو كانت أجرة إصلاحها تشمل إعادة صنع نصف أجزائها.

أعاد المال إلى الصندوق وأغلقه.

قال بصوت خافت: «هذا ليس عربوناً.»

لم يجبه أحد. بدا صوت المكيف في الزاوية أعلى مما كان، ثم عاد إلى همهمته المعتادة. استدار سالم نحو الباب، كأنه يتوقع أن يرى المرسل واقفاً في الخارج يراقبه، لكن الزقاق كان خالياً إلا من قطة تحت سيارة مركونة.

كان يستطيع أن يترك الطرد جانباً، أو يسلمه للشرطة، أو يسأل أصحاب الدكاكين إن عرفوا الرجل. لكنه لم يجد في الصندوق ما يهدد أحداً. والساعة، على عطبها، كانت تنتمي إلى عمله. مد يده إليها. برد معدنها في راحته أكثر مما توقع، ولحظة قصيرة لم يرَ الورشة كما هي؛ لمح ضوءاً

أصفر مرتجفاً على جدار بعيد، وشمّ رائحة مطر يضرب حجراً ساخناً، ثم شيئاً مرّاً يشبه الدخان. تلاشى الخاطر قبل أن يتشكل. وضع الساعة على المنضدة، وأقنع نفسه بأن غبار العلبة العتيقة هو ما أثار أنفه.

بدأ من الخارج. فحص التاج، المفصلة، الزجاج، ثم أدار الساعة إلى وجهها. لا أثر واضح لصدمة، ولا كسر في الزجاج. فتح الغطاء الخلفي بأداة رفيعة، فظهر قلب معدني متماسك غطاه غبار قديم. لم يكن العطل في النابض وحده؛ بدا أن عجلة التوازن توقفت بعد أن جف الزيت وتراكمت الأتربة حول المحور. ساعة مهملة، لا ساعة مدمرة.

حين رفع الحركة عن الهيكل لاحظ خطاً محفوراً على الحافة الداخلية، دقيقاً حتى كاد يختفي تحت السواد. استعان بعدسة مكبرة، ومسح المكان بفرشاة ناعمة. ظهرت ثلاثة أحرف عربية: «ي.س.»، وتحتها رقم صغير: ٣١٤. لم تكن الأرقام جزءاً من ترقيم القطع، ولا من تاريخ الصنع.

أخرج سالم الورقة من الظرف ووضعها قرب النقش. «لمن تعود؟» تمتم. قد يكون الرقم رقم خزانة، أو إشارة إلى سجل، أو لا يعني شيئاً. أما الحرفان فربما كانا اسماً ولقباً. يوسف؟ ياسر؟ لم يكن ثمة طريقة لمعرفة ذلك من نقش لا يتجاوز حبة العدس.

واصل تنظيف الآلية. عند إزالة الغطاء الداخلي انزلق من بين بطانتين قصاصة رقيقة، صفراء عند الأطراف. لم تحمل سوى كلمة واحدة بخط يدوي متعجل: «يوسف»، وتحتها عبارة شبه ممحوة: «دار السراج». ثبتت يد سالم فوق الطاولة.

دار السراج. عرف الاسم، مع أنه لم يذكره منذ زمن. كانت مكتبة عامة في الحي القديم، أو ما بقي منها؛ مبنى حجرياً يضم قاعة مطالعة ورفوفاً عالية، وقاعة صغيرة للأنشطة. أغلقت أبوابها سنوات، ثم أعيد استخدامها مخزناً لبعض الوقت. عندما كان صغيراً مرّ بها مرات كثيرة، وربما دخلها، وربما لم يفعل. ذاكرته لم تكن خالية تماماً، لكنها تشبه درجاً اختلطت فيه المفاتيح.

حمل القصاصة إلى الضوء. عند كلمة «السراج»، بدت رائحة الورق القديم أقوى، واختلطت في ذهنه برائحة المطر والدخان نفسها. ثم جاء صوت خافت: طَق، طَق، طَق. لم يكن الصوت في الورشة. أو لعلّه كان نقرة أداة على معدن، لكنها أعادته إلى ذلك السكون الآخر، إلى باب لا يرى وجهه، ويدٍ لا يعرف إن كانت صغيرة أم يده هو. أغمض عينيه، فاختفى كل شيء، وبقيت حافة المنضدة تحت أصابعه.

طرق أحدهم الباب فجأة، طرقتين متتاليتين. انتفض سالم حتى اصطدمت أداة التنظيف بغطاء الساعة.

دخلت أم رائد قبل أن تسمع إذناً، تحمل طبقاً مغطى بمنشفة. «أحضرت لك فطائر. لا تقل إنك أكلت، رأيتك من نافذتي منذ الصباح.»

ابتسم سالم ابتسامة متعبة. «لم أقل شيئاً بعد.»

«وجهك قال.» وضعت الطبق في المساحة الخالية، ثم لمحت الصندوق المفتوح. «طرد جديد؟»

«ساعة. لا أعرف من أرسلها.»

تأملت النقش في يده. «يوسف؟»

«يبدو ذلك. ومعها اسم دار السراج.»

تبدل وجهها قليلاً، لا بما يكفي ليكون خوفاً، بل بما يكفي لأن يلاحظه رجل اعتاد قراءة الأشياء الصغيرة. قالت: «كان يوسف حارس المكتبة. رجل طيب، قليل الكلام. لا أعرف أين صار الآن.»

«هل تعرفين عنوانه؟»

«ربما يعرفه أبو فواز. اسأله بعد الظهر، كانا يتحدثان كثيراً عند المخبز.» ثم دفعت الطبق إليه. «كل أولاً. لا تصلح الساعات على معدة فارغة.»

لم يعترض. تناول فطيرة وشكرها، وأخبرها أنه سيسأل أبا فواز. قبل أن تغادر، التفتت إلى الساعة. «أتعرف؟ كان في دار السراج ساعة كبيرة في المدخل. تتوقف كلما انقطع التيار، ثم يعيدها يوسف بنفسه.»

سأل سالم: «وكانت تتوقف عند الثالثة وأربع عشرة؟»

ترددت. «لا أذكر. أتذكر فقط أنها كانت تتأخر دائماً.»

حين أغلقت الباب، عاد إلى عمله. صار للساعة الآن طريق محتمل، وللطرد سؤال أكثر تحديداً. يوسف، ودار السراج، وثلاثة أحرف ورقم لا يفسرهما بعد. ولم يكن ذلك كافياً ليطمئن، لكنه كان كافياً كي لا يؤجل الإصلاح.

أخرج الحركة، نظف المحور، ووضع قطرة زيت بحجم رأس الدبوس. عدّل موضع عجلة التوازن، ثم أعاد النابض إلى مكانه. انتظر قبل أن يركّب الغطاء. لم يتحرك شيء. مال فوق الآلية، كاتماً أنفاسه، حتى التقطت أذنه نقرة خفيفة، تلتها أخرى. بدأت العجلة تدور ببطء.

لم تكن دقات الساعة عالية، لكنها ملأت الورشة كما يملأ صوت شخص عائد مكاناً ظل خالياً. أدار سالم العقارب بحذر. عند الثالثة وأربع عشرة دقيقة، توقف قلبه المعدني مرة أخرى؛ لم تتعطل الآلية، إنما علق العقرب تحت نتوء صغير في حافة الميناء. أزاحه بطرف الملقط، فانفلت العقرب إلى الأمام.

وحين انحنى ليثبت الزجاج، لمح في باطن الغطاء خدشاً قديماً لم ينتبه إليه: نصف دائرة دقيقة، يتوسطها خط قصير. العلامة نفسها، بالمقاس ذاته، كانت على معصمه الأيسر، ندبة باهتة لا يتذكر متى اكتسبها. مرر إصبعه عليها. وفي اللحظة التي انطلقت فيها دقة الساعة التالية، عاد الطرق من مكان بعيد: ثلاث طرقات على باب، ثم سكون.

أبقى يده قرب معصمه، من غير أن يلمس الندبة مرة أخرى. لم يكن الألم هو ما أخافه؛ لم تؤلمه إلا إذا ضغط عليها، وكان قد اعتاد ذلك منذ زمن. ما أربكه أن العلامة الصغيرة على

المعدن بدت كأنها تعرف طريقها إلى جلده. حاول أن يستعيد يوم اكتسبها، فوجد في رأسه أياماً عادية كثيرة: باب الورشة، صوت المخبز، وجوه تمر في الزقاق. لم يجد بينها لحظة تصلح جواباً.

رفع الساعة نحو المصباح، ومال بها حتى تبدلت ظلال الخدش. بقيت العلامة كما هي، دقيقة لا تزيد عن أثر دبوس، لكنها لم تعد تفصيلاً عابراً. كان يستطيع أن يكتب في دفتر العمل: «ساعة متوقفة؛ تحتاج إلى تنظيف»، ثم يضعها جانباً مثل كل قطعة لا يعرف صاحبها. غير أن يده لم تمتد إلى القلم. كلما حاول أن يصرف نظره، عاد إليه صدى الطرقات الثلاث، لا عالياً ولا واضحاً، بل قريباً بما يكفي ليجعله يصغي.

تقدم نحو باب الورشة وفتحه على الزقاق. لم يكن هناك أحد. ابتعد ساعي البريد، وأطفأ أبو فواز ضوء مخبزه، ولم يبقَ إلا خيط من هواء بارد يحرك طرف الستارة. عاد وأغلق الباب، ثم غسل يديه ببطء، كأنه يزيل عنهما غباراً لا يراه. لم يختفِ الإحساس. وفي دفتره، كتب الوقت الذي توقفت عنده الساعة، ثم وضع النقطة بعده ولم يكتب تفسيراً.

جلس ثانية إلى المنضدة. لم يرد أن يمنح الخوف اسماً، ولا أن يحول المصادفة إلى يقين. كان يعرف أن المعدن يحتفظ بالخدوش، وأن الجلد يحتفظ بآثار لا يتذكر أصحابها بدايتها. لكنه لم يعرف لماذا بدا له أن كليهما ينتظر منه أن ينظر. أدار الساعة على وجهها، ثم أعادها إلى ظهرها. هذه المرة، لم يبعد يده عنها.

رفع سالم رأسه إلى المرآة الصغيرة فوق المنضدة. لم يرَ سوى وجهه الشاحب، والساعة في يده، والوقت الذي بدأ يتحرك من جديد. لكن على ظهرها، تحت العلامة، برزت حروف محفورة لم تكن قد ظهرت قبل أن يمسح الغبار:

«سالم».

ولم يكن ذلك اسم صاحب الساعة.

الفصل الثاني

المفتاح بلا قفل

«بعض الأبواب لا تحتاج إلى مفتاح كي تُغلق؛ يكفي أن ينسى أحدهم قطعة صغيرة في موضعها.»

ظلّت الساعة ساكنة عند الثالثة وأربع عشرة دقيقة، كأن عقاربها لم تتوقف بل اختارت ألا تشهد بما بعدها. وضعها سالم في درج مبطّن بالقماش، وأغلقه برفق. لم يكن يريد أن يسمع طقطقة المعدن كلما تحرك في الورشة، ولا أن يختبر مرة أخرى ذلك الشعور الغريب بأن شيئاً صغيراً يراقب طريقه من داخل صندوق خشبي.

في الصباح، وجد الطرد الثاني عند عتبة الباب. لم يسمع وقع خطوات في الزقاق، ولم يلمح أحداً من النافذة. كان الصندوق أصغر من الأول، ملفوفاً بورق بني مشدود بخيط قطني. إلى جانبه ظرف أبيض فيه المبلغ المعتاد وبطاقة قصيرة: «أصلحه، وستفهم لمن يعود».

أدار سالم الصندوق بين يديه قبل أن يفتحه. تردد لحظة، ثم فك الخيط. في الداخل استقر مفتاح نحاسي طويل، معوجّ عند عنقه، وقد اسودّ طرفه كأنه قُرّب من نار أو ظل زمناً في رطوبة. لم يكن معه قفل، ولا شيء آخر يشرح سبب وجوده. وعلى حافته قرب الأسنان، لمح خدشاً دقيقاً لا يكاد يُرى.

أخذ المفتاح إلى منضدة الضوء. لم يكن مكسوراً تماماً؛ كان انحناؤه يضغط على المعدن ويمنعه من الاستقرار في خط مستقيم. جرّب أن يرده بإبهامه، فقاوم. لم يضغط أكثر. الأشياء التي انحنت تحت حمل لا تعود مستقيمة لمجرد أن أحداً استعجلها.

كان أثر الساعة قد قاده إلى يوسف، حارس دار السراج السابق. لم تكن الساعة دليلاً كافياً وحدها، لكن اسم الحارس ظهر في سجل صغير عُثر عليه داخل غطاءها، إلى جانب رقم هاتف قديم. بعد مكالمتين، وصله بيوسف في شقته القريبة من السوق. قال الرجل إنه لم يعد يعمل في

الدار منذ سنوات، لكنه وافق أن يراه في مقهى هادئ، وأضاف معتذراً: «لا أضمن أن أتذكر كل شيء. الذاكرة لا تحفظ الأشياء كما تحفظها الساعات».

أخفى سالم المفتاح في جيب معطفه، ومضى.

كان يوسف أصغر مما تخيله، أو لعل الصور القديمة جعلته يبدو أكبر. جلس قرب النافذة، وبجانبه عصا مطوية لم يستخدمها إلا حين نهض. أمامه كوب شاي لم يمسّه. صافح سالم بيد خشنة، ثم نظر إليه نظرة طويلة لا تحمل تعرفاً مؤكداً.

«أنت ابن...» بدأ، ثم ترك الجملة معلقة.

«سالم. كنت أتردد على المكتبة وأنا صغير.»

هز يوسف رأسه ببطء. «نعم. كنت تساعد في نقل الصناديق. كنت سريعاً أكثر مما ينبغي.»

لم يعرف سالم ما يجيب. جلس، وأخرج الساعة من كيس قماشي صغير. وضعها بينهما، وترك وجهها إلى أعلى. حين رأى يوسف الوقت المتوقف، انقبض فمه.

«كانت معي تلك الليلة؟» سأل.

«وجدتها ضمن الأشياء التي وصلتني. أردت أن أسألك عن الإنذار.»

لم يطلب يوسف تفسيراً للطرد. قرّب الساعة منه، لكنه لم يلمسها. «تعطل التيار، نعم. سمعنا صوتاً من جهة اللوحة، ثم انطفأت المصابيح. كنت عند مكتب الحارس. الإنذار لم يعمل فوراً. أو هكذا قلت لنفسي وقتها.»

«هل كان معطلاً؟»

رفع يوسف عينيه. «لا أعرف. سمعت طقطقة، وقلت إنها من المطر أو تماس بسيط. كان في المبنى رائحة غبار مبلول، لا دخان في البداية. تأخرت قبل أن أرفع الإنذار. دقائق، على ما أظن.»

قالها من دون دفاع طويل. بدا كمن جرّب صياغة التبرير مرات كثيرة، ثم تعب من سماعه.

«التقرير قال إن الإنذار تعطل بسبب انقطاع التيار» قال سالم.

«التقرير قال أشياء كثيرة.» مرر يوسف إصبعه على حافة الطاولة. «كنت خائفاً أن أفقد عملي. كانوا يقولون إن المكتبة ستُغلق إن ثبت الإهمال، وإن الحي سيخسر المكان كله. ظننت أن الصمت يحميه. ثم صار الصمت أسهل من تصحيحه.»

سكتا. في المقهى، انحنت امرأة على طفلها لتربط حذاءه، وواصل صاحب المكان ترتيب الأكواب. لم يكن في اعتراف يوسف شيء يطلب تعاطفاً، لكنه لم يكن يطلب الإدانة أيضاً.

سأل سالم: «وماذا عن الباب الجانبي؟»

انزلق بصر يوسف إلى النافذة. «كان يعلق. أحياناً لا ينغلق إلا إذا رفعته قليلاً من طرفه، وأحياناً يحتاج من يدفعه بكتفه. أخبرت المسؤول بذلك. لا أتذكر إن كان أحدهم أصلحه فعلاً.»

«لكن تقرير الحادثة يقول إن الباب كان سليماً.»

«أعرف.» شرب أخيراً رشفة من الشاي، وقد برد. «وقّعت على ما كتبوه. قالوا إن الباب فُحص بعد الحادثة، وإنه يعمل. ربما عمل يوم الفحص. هذا لا يعني أنه كان سليماً تلك الليلة.»

لم يرفع يوسف صوته ولم ينظر إلى سالم طالباً حكماً. قال ما استطاع قوله، ثم بقيت بينهما مساحة لا يستطيع الكلام أن يملأها.

فتح سالم يده فوق الطاولة، وأخرج المفتاح. «هل تعرف هذا؟»

تبدل وجه يوسف، لا كثيراً، لكن عينيه ثبتتا على الانحناءة. «ليس مفتاح الدار. كان للباب مفتاح آخر، أصغر. هذا...» مد إصبعه نحو العلامة قرب الأسنان، ثم توقف قبل أن يلمسها. «ربما صنعه نادر. كان يصلح الأقفال والأبواب في الحي. أذكر قطعة نحاسية من هذا النوع، أدخلها في الباب حين كان يعلق. قال إنها تثبيت مؤقت حتى يأتي الجزء الصحيح.»

«هل تعرف أين أجده؟»

أعطاه يوسف عنوان دكان صغير في شارع السوق القديم. قبل أن ينهض سالم، قال الحارس السابق: «لا تكتب عني رجلاً لم يهتم. كنت أهتم. لكن الخوف يجعل المرء يخلط بين حماية مكان وحماية نفسه.» ثم أضاف بعد لحظة: «لا أدري إن كان هذا عذراً.»

«ليس عليّ أن أقرر ذلك الآن» قال سالم.

خرج وهو يشعر بثقل المفتاح في جيبه. وحين مرّ بلوحة إعلانات عند زاوية الشارع، كان اسم دار السراج مكتوباً على قصاصة قديمة تعلن عن حملة لجمع الكتب. توقف سالم من غير أن يقصد. سرت في صدره رعشة دقيقة، كأن الاسم ليس حروفاً بل باب يوشك أن ينفتح. أبعد عينيه عنه ومضى.

كان دكان نادر أضيق من أن يستوعب طاولة عمله والرفوف المعلقة معاً. فوق المدخل لوحة باهتة كُتب عليها «إصلاح الأقفال والمفاتيح». استقبله رجل في أواخر الخمسين، نحيل الكتفين، يضع نظارة مكبرة على رأسه. نظر إلى المفتاح، ثم إلى سالم.

«من أين حصلت عليه؟»

«وصلني في طرد. قال يوسف إنه قد يكون من عملك.»

أخذ نادر المفتاح بحذر، وقلبه تحت المصباح. مرر ظفره على الخدش. «ليس مفتاحاً الآن. كان كذلك، ثم صار شيئاً آخر.»

«قطعة التثبيت؟»

رفع نادر رأسه. «يوسف تذكرها.»

لم يقل سالم شيئاً. وضع نادر المفتاح على قطعة جلد، وراح يشرح كأنه يحدّث نفسه. قبل الحادثة بوقت، كان لسان القفل يرتد بسرعة ولا يصطف مع الصفيحة. صنع من نحاس المفتاح شريحة رقيقة، وثناها بحيث تُبقي اللسان مرتداً ريثما يُستبدل الجزء المتآكل. «كان حلاً مؤقتاً. كان ينبغي أن أعود في اليوم التالي وأركب القطعة الصحيحة. لم أعد. ظننت أن الأمر يمكن أن ينتظر، ثم نسيت.»

«كيف انتهى المفتاح عند الباب؟»

هز نادر كتفيه. «ربما احتفظ به يوسف بعد أن قصصت منه الشريحة. لا أجزم. أتذكر أن الباب كان يغلق، لكن إذا دُفع بقوة، انزلقت القطعة داخل التجويف. من الخارج لا يظهر شيء. ومن الداخل، قد يضغط اللسان على الشريحة فيعلق. لم أكن أعرف أن الباب سيُغلق على أحد.»

ظل سالم ينظر إلى موضع القطع. اتضح أن ما حسبه انحناءً عشوائياً كان نتيجة ثني متكرر، وأن الطرف المفقود لم يترك كسراً حاداً بل خطاً ملساءه الاحتكاك. استقر في ذهنه احتمال بسيط ومزعج: الباب بدا سليماً في فحص سريع، لكنه لم يكن يعمل كما ينبغي حين احتاج إليه أحد.

«هل تستطيع إعادته إلى حاله؟» سأل نادر.

«أستطيع أن أجعله قابلاً للفهم أولاً.»

أومأ نادر. «هذا أفضل من أن تجعله جميلاً.»

عاد سالم إلى الورشة قبل الغروب. وضع المفتاح تحت المصباح، وسخّن موضع الانحناء تسخيناً خفيفاً ثم سوّاه على مراحل، مع تثبيت الجزء الباقي كي لا يلتوي. نظّف الحافة بفرشاة دقيقة. وحين مرر المبرد على الخدش، ظهر تحته أثر ختم صغير: ثلاثة خطوط قصيرة تتقاطع عند زاوية ضيقة.

توقفت يده.

كان الرمز يشبه العلامة التي اعتادها في ورشته القديمة، تلك التي كان يضعها جده على الأدوات بعد إصلاحها. لم يكن التطابق تاماً؛ العلامة هنا ناقصة، أو ربما شوّهها البلى. قلب المفتاح أكثر من مرة. عاد إليه خاطر أن أشياء كثيرة تعبر الأيدي قبل أن تستقر في مكانها، وأن الشبه وحده لا يكفي لإثبات صلة.

لكن شيئاً ما انفتح في داخله، لا صورة كاملة، بل ومضة قصيرة: عتمة وراء باب، طرقات متباعدة، وكف صغيرة ممدودة على الجهة الأخرى. اختفت قبل أن يلتقط منها وجهاً أو صوتاً.

قبض على حافة المنضدة حتى هدأ تنفسه، ثم تركها.

لم يسأل نفسه من كانت اليد. لم يرد أن يصنع ذكرى من الخوف.

أعاد المفتاح إلى خطه المستقيم، ونظف ما بقي من السواد. لم يعد يصلح لفتح قفل، لكنه استعاد شكله بما يكفي ليُظهر ما فُقد منه وما استُخدم لأجله. وضعه بجوار الساعة. توقفت الساعة عند وقت محدد، أما المفتاح فكان دليلاً على شيء لم ينته في لحظته، بل تُرك على عجل كي يعود صاحبه إليه لاحقاً.

في المساء، فتح سالم دفتره. كتب: «يوسف: تأخر الإنذار. الباب كان يعلق. التقرير قال إنه سليم.» ثم رسم خطاً تحت العبارة الأخيرة. بقيت صفحة جديدة أمامه، فارغة إلا من لطخة حبر عند طرفها.

تذكر أن نادر أشار إلى سجل قديم للطلبات في الدار، وأن ليلى، المصورة التي كانت تأتي لتوثيق نشاط المكتبة، التقطت صوراً للأبواب قبل الحادثة. لم يكن يعرف أي الطريقين سيحمل الجواب التالي، لكنه لم يعد يريد أن يترك السؤال في الدرج.

أغلق الدفتر، ووضع المفتاح في علبته، ثم كتب على قصاصة صغيرة: «الصورة أولاً، أو الشاهد الذي بقي معها».

وعلى غير عادته، لم يمحُ الجملة.

الفصل الثالث

المرآة المشروخة

«قد تعيد المرآة وجهك، لكنها لا تعيد إليك اللحظة التي كنت فيها.»

وصل الطرد بعد الظهر، حين خفّ المطر إلى خيط متقطع على زجاج الورشة، وبدأت الشمس تتسلل بين السطوح كأنها تتفقد ما تركته العاصفة. كان سالم قد فرغ لتوه من تثبيت نابض ساعة يوسف، ووضعها على الرف كي يختبر دقاتها. لم تعد تشير إلى الثالثة وأربع عشرة دقيقة؛ تحرك عقربها الصغير بتردد، كمن يطلب الإذن قبل أن يمضي.

رن الجرس المعلق على الباب. لم يكن الطارق هو ساعي البريد الذي اعتاد المرور في الصباح، بل فتى يحمل صندوقاً مسطحاً ملفوفاً بورق بني، وعلى طرفه بطاقة صغيرة كُتب عليها اسمه. لم يكن ثمة عنوان مرسل. دفع سالم أجرة التوصيل، وانتظر حتى ابتعد الفتى، ثم ظل لحظة يحدق في الصندوق قبل أن يمد يده إليه.

كانت الحزمة أخف مما توقع. في داخلها قطعة مرآة مستطيلة، بحجم كفّين، مثبتة في إطار خشبي رقيق اسودّ عند الزوايا. انشق الزجاج من أسفل اليمين إلى منتصفه، وتفرعت من الشق خطوط دقيقة مثل أغصان شتوية. تحت المرآة استقر ظرف صغير، وفيه مبلغ يكفي أجرة الإصلاح، وبطاقة لا تحمل إلا العبارة التي صار يعرفها: «أصلحه، وستفهم لمن يعود».

أدار المرآة نحو الضوء. لم يرَ وجهه كاملاً؛ قطع الشق إحدى عينيه، وأزاح الخط اللامع فمه عن مكانه. بدا انعكاسه كصورة مركبة من شخصين لا يعرف أحدهما الآخر. أعادها إلى الطاولة، وفتح الظرف. كان في قاعه قصاصة ورق رقيقة، لا عنوان عليها سوى اسم مكتوب بقلم أزرق: ليلى منصور، مصورة وصحفية محلية.

عرف الاسم. رأى توقيعها على تقارير عن سوق الخضار القديم، وعن إغلاق دار السينما، وعن معرض صور أقيم قبل أعوام في قاعة البلدية. لم يكن يعرفها شخصياً، لكنه تذكر صورة

كبيرة لها على واجهة القاعة: صف من الوجوه أمام أبواب مكتبة دار السراج، في يوم ثقافي لم يحدد تاريخه. في الصورة، كما خُيل إليه، كان المطر قد بدأ قبل أن ينتهي الناس من الدخول.

لم يكن يريد أن يذهب إليها. لم يكن يثق بالطرود، ولا بمن يضعون له الأسئلة في أشياء مكسورة. لكنه صار أقل قدرة على تجاهلها من قدرته على فهمها. وضع المرآة في غلاف قماشي، وأغلق الورشة قبل موعده بقليل.

كان مكتب ليلى في الطابق الثاني من مبنى تجاري ضيق، بين محل تصوير ومكتب محاماة. عند الباب لوحة صغيرة لا تلمع: «ليلى منصور – تصوير وتوثيق». صعد سالم الدرج، وتوقف أمام الباب المفتوح نصف فتحة. سمع صوت تقليب أوراق، ثم طرق طرقاً خفيفاً.

رفعت ليلى رأسها عن شاشة حاسوبها. بدت في أواخر الثلاثينيات، بشعر مربوط إلى الخلف، ونظارة معلقة بسلسلة رفيعة. لم تسأله من يكون؛ عيناها وقعتا على الغلاف القماشي الذي يحمله. قال: «أظن أن هذا يخصك».

لم تقترب. «ما هو؟»

«مرآة. كانت في طرد وصلني اليوم. وفيه اسمك».

ساد صمت قصير. أغلقت ليلى نافذة على الشاشة، ثم أشارت إلى كرسي أمام المكتب. «اجلس. لكن ضعها على الطاولة، من فضلك».

أخرجها ببطء، ووضعها بينهما. تحولت ملامحها حين رأت الإطار؛ لم تكن دهشة كاملة، بل انقباضاً سريعاً عند طرف العين، كأنها تذكرت شيئاً حاولت ألا تفكر فيه. مدت يدها، لكنها لم تلمسها.

«كانت في قاعة العرض؟» سألت.

«هذا ما قيل لي؟»

«لم يقل لك أحد شيئاً. أنت تستنتج».

لم يرد. كان ذلك صحيحاً، وربما لهذا ضايقه. حملت ليلى المرآة من حافتها، قلبتها لتفحص ظهرها. على الخشب ملصق باهت يحمل رقم الجرد الخاص بقاعة البلدية، وتحته بقعة لاصقة مستطيلة، كأن لوحة تعريفية كانت هناك ثم نُزعت.

قالت: «كانت ضمن معرض الصور الذي أقمناه عن دار السراج. أُزيلت القاعة بعد التجديد، وتفرقت الأشياء. لا أعرف كيف وصلت إليك».

«وأنا لا أعرف».

تأملت وجهه كأنها تزن ما إذا كان في صوته غضب أم حذر. «هل أصلحت أشياء أخرى وصلت بالطريقة نفسها؟»

كان السؤال مباشراً، فلم يختبئ وراء إجابة طويلة. «نعم».

«وهل أصلحتها لتعيدها إلى أصحابها؟»

«حتى الآن، حاولت أن أعرف أصحابها».

«هذا ليس جواباً».

«ربما لا أملك جواباً أفضل».

مالت ليلى إلى الوراء، ثم فتحت درجاً وأخرجت منه ملفاً ورقياً. لم تفتحه. اكتفى سالم بملاحظة أن حافته مهترئة وأن ورقة صفراء بارزة من بين الصفحات. قالت: «احتفظت بصورة قديمة لدار السراج. التقطتها قبل العاصفة بأيام، أو ربما في اليوم نفسه. لا أذكر الآن ترتيب الأيام. لم أنشرها».

«لماذا؟»

«لأنها لا تقول ما قد يظنه الناس أنها تقوله».

ظلت يدها فوق الملف. مضت سنوات وهي تشرح لنفسها سبب إبقاء الصورة في درجها. كانت تخشى أن يقتطعها أحد من سياقها، أن تتحول الوجوه في الزجاج إلى دليل جاهز، وأن يُختصر ما حدث في اتهام واحد يسهل تداوله. قالت ذلك لنفسها مراراً؛ لم تكن كاذبة، لكن

الخوف لم يكن كله مهنياً. في الصورة انعكاس شاب عند الباب، وربما لم يكن سوى عابر صادف مروره لحظة ضغط الغالق. وربما كان شخصاً صار اسمه جزءاً من حكاية لم تجرؤ على لمسها.

قالت: «لا أريد أن أسلمك الصورة لمجرد أن طرداً مجهولاً أوصلك إليّ».

«لم أطلبها».

«لكنّك جئت من أجلها».

نظر إلى المرآة. «جئت لأعرف لماذا أُرسلت إليّ».

«والفرق؟»

«أن الأولى تعني أنني أعرف ما الذي أبحث عنه».

لم تبتسم، لكن حدّة وجهها خفت قليلاً. أخرجت الصورة من الملف، وأبقتها داخل غلاف شفاف. وضعتها أمامه دون أن تدفعها نحوه.

كانت صورة بالأبيض والأسود، واسعة الحبيبات عند الحواف. ظهرت دار السراج بواجهة من الحجر الفاتح، وباب زجاجي ينعكس عليه الشارع. وقف رجل مسن إلى جانب لوحة الإعلانات، وفي الخلفية امرأة تحمل صندوقاً. عند الزجاج، قرب المقبض، بان انعكاس شاب نحيل، رأسه مائل قليلاً، وذراعه قريبة من الباب. لم يكن الوجه واضحاً. قد يكون سالم، وقد يكون غيره. لم تمنحه الصورة إلا احتمالاً.

اقترب منها. لم يلمس الغلاف. شعر أن الهواء في المكتب ضاق، وأن صوت المطر البعيد عاد فجأة إلى مكان أقرب. بدا الشاب في الزجاج مألوفاً على نحو مزعج. في رأسه طرقت ثلاث ضربات: متباعدة، ثم أسرع إيقاعاً. رفع عينيه إلى ليلى.

«أتعرفه؟» سألت.

قال: «لا أعرف».

ولم يكن كذباً تاماً. كان في داخله شيء ينهض، لكن ملامحه لم تتجمع. جاءه طنين قصير، وصورة باب لا يفتح، وربما لم تكن صورة بل ذكرى استعارها من الساعات المتوقفة. صرفها كما يصرف المرء صوتاً في شارع مزدحم: عاد إلى تفاصيل الحاضر، إلى غبار على إطار الصورة، وإلى خدش صغير في حافة الغلاف.

قالت ليلى: «أنت تحدق فيه كأنك تحاول أن تتذكر».

«ربما أحاول أن أقرر ما إذا كنت أرى ما أريد رؤيته».

«وهل ستصدق الصورة إن قالت ما تريد؟»

رفع بصره إليها. «أنت لم تنشريها لأنك خفت أن يصدق الناس صورة ناقصة».

«نعم».

«لكنّك أبقيتها».

«هذا لا يجعلني أفضل منهم. لم أنشرها، ولم أذهب إلى من قد تعنيه. احتفظت بها في درج، وقلت إن الانتظار حكمة. أحياناً يكون خوفاً باسم ألطف».

لم يقل لها إن خوفه كان أيضاً طريقة ليبقى بعيداً عن كل ما لا يستطيع إصلاحه. نظر إلى المرآة المشروخة، فوجد طرف وجه ليلى يمر في أحد شظاياها، فيما استقر وجهه هو في الشق الأوسط، متقطعاً لكن واضحاً بما يكفي. قالت: «هل تستطيع إصلاحها؟»

أخرج أدواته الصغيرة من حقيبته. لم تكن المرآة قابلة للترميم الكامل؛ الزجاج مشروخ في موضع لا يسمح بجمعه من دون أن يظل الأثر مرئياً. نظف الحافة، وثبت شريطاً رقيقاً خلف الكسر كي لا يتسع، ثم أعاد الإطار إلى مكانه. كانت ليلى تراقب يديه، لا وجهه. وحين أنهى، رفعت المرآة نحو الضوء لتفحص العمل.

في اللحظة التي مال فيها سالم فوقها، انعكست صورته على الجزء السليم من الزجاج. استقر وجهه فوق وجهه، من دون أن يقطعه الشق. دام الانعكاس لحظة واحدة، ثم تحركت يد ليلى فعاد الخط إلى منتصفه. لم يقل أي منهما شيئاً.

وضعت ليلى المرآة جانباً، وأعادت الصورة إلى غلافها. لم تسلمها له، ولم تعدها إلى الدرج. أبقتها على المكتب بينهما، كأنها تختبر للمرة الأولى وزن وجودها في العلن.

قال سالم: «لا أريد أن أطلب منك شيئاً الآن».

«جيد».

«لكن إن قررت أن تخبريني بما تعرفين، سأسمع».

«وإن لم أقرر؟»

«سأعود إلى ورشتي».

بدت الإجابة كافية لها، أو على الأقل أقل إلحاحاً مما توقعت. أغلقت الملف دون أن تخفي الصورة داخله. وعند الباب، قالت: «أرسل لي صورة للمرآة بعد إصلاحها. ليس لأنني أثق بالطرد، بل لأتذكر كيف كان الكسر».

أومأ سالم. حمل المرآة وترك الصورة لها. وفي طريقه إلى الدرج، لمح من زاوية عينه حافة الغلاف الشفاف. كانت الصورة مقصوصة عند طرفها الأيمن، لكن الخط الأبيض المتروك هناك لم يكن حدّ الصورة الأصلي؛ ظهرت في الحافة مساحة أفتح، مستطيلة، كأن الباب الزجاجي لم يكن مغلقاً تماماً حين ضغطت ليلى زر الكاميرا، وكأن أحداً تركه مواربا.

لم يكن الباب مفتوحا بما يكفي ليمر منه أحد، لكنه لم يكن مغلقا كما ظنت ليلى.

بقي سالم عند أسفل الدرج، والمرآة تحت ذراعه، يفكر في تلك المسافة الضيقة بين العبارتين. أحيانا لا تكشف الصورة ما حدث؛ تكشف فقط أن ما حسبناه نهاية لم يكن محكما تماما.

في الورشة، وضع المرآة قرب الإطار الفارغ. لم يضف إلى دفتره تفسيرا، بل كتب: «الصورة لا تتهم أحدا. إنها تحفظ موضع الباب». ثم أرسل إلى ليلى صورة للمرآة بعد إصلاحها. لم يسألها عن الرجل المنعكس، ولم يطلب منها أن تختار له اسما. كان عليه أن يتعلم النظر قبل أن يقرر ما يرى.

الفصل الرابع

الرسالة المحترقة

«بعض الرسائل لا تحترق؛ إنما نتعلم كيف تختبئ في الورق الذي نجا منها.»

وصل الطرد في ساعة لم يكن فيها سالم ينتظر أحداً. كان المطر قد انقطع قبل قليل، لكنه ترك على الزقاق لمعاناً رقيقاً، كأن حجارة الطريق غُسلت من غبارها ولم تُغسل من ذاكرتها. في الورشة، انحنى سالم على ظهر ساعة حائط قديمة، يثبت نابضها بين إصبعين، حين طرق عامل التوصيل الباب طرقتين متباعدتين.

لم يسأل سالم عن اسم المرسل. لم يعد يفعل ذلك. صار يميز وزن الطرد من وقعته على الطاولة، وصار في كل مرة يشعر بأن شيئاً في داخله يسبقه إلى تخمين ما يخفيه. هذه المرة كان الصندوق أصغر من سابقاته، ملفوفاً بورق بنيّ شدّته خيوط قطنية، وفي طرفه لطخة داكنة لا تشبه الطين. قربها من أنفه، فشم رائحة ورق مبتل ودخان قديم، لا تكاد تُدرك إلا إذا كنت تبحث عنها.

فك الخيط بحذر. في الداخل ظرف سميك، مسوّد الحواف، وشظايا ورق متفحمة تناثرت حوله. لم تكن الرسالة كاملة؛ غاب جزء من أسفلها، وتآكلت حافة كأن النار توقفت عندها مصادفة أو لأن يداً انتزعتها في اللحظة الأخيرة. على الظرف كُتب اسمه بخط واضح، وتحته العبارة المألوفة: «أصلحه، وستفهم لمن يعود».

لم يكن ثمة شيء يُصلح، قال لنفسه أولاً. ثم رأى العلامة الصغيرة عند زاوية الورقة: دائرة زرقاء يتقاطع داخلها خطان، وتحتها رقم أربعة. عرف الدائرة من أوراق البلدية القديمة التي كان يراها في دار السراج؛ ختم لجنة الصيانة، أو ما بقي في ذاكرته من ختمٍ يتكرر على طلبات الإصلاح. أما الرقم فقد بدا كأنه إشارة لا رقم ترتيب وحسب. مدّ يده إلى الدرج الذي حفظ فيه بقايا الأشياء السابقة، وأخرج المرآة المشروخة. عند أسفل إطارها، من الجهة التي لم يلحظها من قبل، كان ملصق باهت يحمل العلامة نفسها، وبجانبه كلمة واحدة: «مريم».

لم يطلّع على العنوان في دليل أو دفتر، ظهر اسم مريم أكثر من مرة في أوراق الصحفية ليلى، قرب إشارات إلى مراجعات البلدية ومحاضر الصيانة. اتصل بليلى، فأجابته بعد رنين طويل.

قال: «هل تعرفين مريم، التي كانت تعمل في البلدية؟»

سكتت لحظة. «أعرف اسمها. كانت في قسم المباني. تركت العمل قبل سنوات. لماذا؟»

«وصلني شيء يحمل علامتها.»

لم تسأله ليلى ما هو. قالت فقط: «إن ذهبت إليها، لا تجعلها تشعر أنك جئت لتضع محكمة على عتبتها. الناس لا يقولون الحقيقة حين يظنون أن كل كلمة ستتحول إلى حكم.»

تردد سالم في الرد. كانت تلك الجملة قريبة مما حاول أن يقوله لنفسه منذ رأى الرسالة. لكنه لم يكن واثقاً أن بإمكانه الفصل بين السؤال والحكم، ولا بين رغبته في معرفة ما حدث ورغبته القديمة في إيجاد اسم يعلّق عليه ما لا يستطيع حمله.

وجد مريم في شقة فوق مخبز، في شارع يضيق كلما صعده. فتحت له امرأة في منتصف الخمسين، شعرها مربوط إلى الخلف وعلى كمّها أثر طحين. نظرت إلى سالم، ثم إلى الظرف.

قالت كأنها تتأكد من الاسم الذي تذكره: «سالم؟»

«نعم. أعتذر إن جئت في وقت غير مناسب.»

تنحت عن الباب. «كل الأوقات غير مناسبة حين يطرق أحدهم ومعه الماضي. تفضل.»

قالت وهي تنظر إلى آثار الاحتراق: «ظننت أنني تخلصت منه.»

«هل كتبتِ تحذيراً عن لوحة الكهرباء في دار السراج؟»

أغلقت مريم دفتر الحسابات. «كتبت مذكرة. لم أكن مهندسة، ولم أملك سلطة إغلاق المبنى. لكن التقارير التي كانت تصلنا تذكر تقطع التيار، ورائحة احتراق في غرفة التخزين، وقاطعاً لا يستجيب كل مرة. ذهبت إلى هناك بنفسي. رأيت اللوحة. كان غطاؤها مرتخياً، والأسلاك أقدم مما ينبغي.»

«وماذا فعلتِ؟»

«كتبت أن المبنى يحتاج إلى فحص عاجل، وأن استخدامه يجب أن يتوقف إلى أن تُستبدل اللوحة.» مررت إصبعها على حافة الظرف، ولم تلمسه. «أرسلت نسخة إلى رئيس القسم. قال إن الأمر سيُعالج بعد انتهاء الفعاليات، وإن إغلاق الدار سيُفسر على أنه قرار إداري لا ضرورة فنية. كانت المكتبة آخر مكان مفتوحاً لأطفال الحي. لم يكن يريد أن يثير الذعر، ولم يكن يريد أن يخسر عقد الصيانة الذي يتوقف عليه عملي.»

«وأنتِ؟»

رفعت عينيها إليه. «وأنا كنت أريد أن أحتفظ بعملي. كان أبي مريضاً، وأمي لا تعمل. أخبرت نفسي أنني فعلت ما يكفي حين كتبت المذكرة. ثم طلبوا مني أن أمحو المسودة من الملف وألا أرسل نسخاً إلى الخارج. كنت أستطيع أن أرفض. لم أفعل.»

قال سالم: «أحرقتِ النسخة؟»

«النسخة التي كانت معي. ليس لأنني صدقت أنهم على حق، بل لأنني خفت. خفت أن تتحول الورقة إلى خبر، والخبر إلى هلع، ثم يُغلق المكان ويُقال إنني السبب. وبعد الحريق خفت أن يعثروا عليها في مكتبي، وأن يقال إنني كنت أعرف ولم أصرخ بما يكفي.» سحبت نفساً طويلاً. «لم يكن خوفي نبيلاً. لكنه كان خوفي.»

سأل: «هل كانت هناك نسخة أخرى؟»

تغير وجهها، لا كثيراً، لكن كفاها تراجعت عن الظرف. «نسخة كربونية. كنت أستخدم ورق النسخ في القسم. وضعتها بين أوراق منزلية، ولم أخبر أحداً. لا أعرف لماذا احتفظت بها. ربما كي لا أستطيع أن أقنع نفسي، بعد ذلك، أن التحذير لم يحدث.»

«هل ما زالت عندك؟»

«نعم.»

نهضت، ثم توقفت عند باب الممر كأنها تذكرت شيئاً. «لكن قبل أن أريك إياها، أريد أن أعرف: هل تسأل عن الورقة فقط؟ أم تبحث عن شخص تضع عليه ما لا تستطيع تذكره؟»

كان السؤال أكثر دقة من أن يجيب عنه بسرعة. نظر إلى يديه. بقي على طرف إبهامه خط رفيع من زيت الساعة، ورأى في سواده بقعة الحرق الصغيرة التي يحملها منذ طفولته. لم تكن البقعة تؤلمه، لكنها كانت تظهر حين ينسى أن يرفع يده عن ضوء النافذة.

«لا أعرف تماماً»، قال. «أريد أن أعرف ما كان ينبغي أن نعرفه قبل تلك الليلة. وربما أريد أن أعرف ما فعلته أنا أيضاً. لكنني لا أريد أن أجعل اعترافك عذراً لي، ولا أن أجعلك وحدك جواباً عن شيء شارك فيه كثيرون.»

عادت مريم بملف كرتوني نحيل. لم تفتحه. وضعت يدها فوقه وقالت: «هذه الورقة قد تثبت أن أحداً حذّر. لكنها لا تثبت أن أحداً فهم الخطر، ولا ما حدث في كل غرفة تلك الليلة. الورق يسجل كلماتنا، لا شجاعتنا ولا خوفنا.»

أومأ سالم. «أفهم.»

«لا أظن أنك تفهم بعد.» لم يكن في صوتها قسوة، وإنما تعب من الفرق بين معرفة الجملة والعيش فيها. «لكن يمكنك أن تتعلم.»

سألها عن توقيت المذكرة، وعن من تسلمها، وعن اللوحة. أجابت بما تتذكر، وامتنعت عما لم تعد واثقة منه. كُتبت المذكرة قبل الحريق بأسابيع، ورُفعت في صباح ثلاثاء، وبجوار توصية الفحص رقم معاملة. لم تعرف إن كان قد أُنجز شيء بعدها. في دفترها إشارة إلى «تأجيل المعالجة إلى ما بعد موسم التسجيل».

لم يطلب منها اسماً يختصر سلسلة التأجيلات. قالت إنها ستفكر في تسليمه النسخة، لكنها لا تريد تصويرها أو نشرها قبل أن تعرف أين ستذهب ومن سيرى اسمها. وعدها ألا يخرج منها شيء دون إذنها، وعداً لا يسهل الوفاء به، لكنه أقل من ثمن الحقيقة وأكثر من مجاملة.

عندما وصل إلى الزقاق كان المساء قد ثقل. أضاء المصباح فوق باب الورشة، فوقع ضوؤه على ورقة مطوية مثبتة تحت حلقة المقبض. لم يكن عليها اسم ولا ختم. أخرجها، وبقي واقفاً قبل

أن يفتحها، مصغياً إلى أصوات الحي: باب يُغلق، تلفاز من نافذة بعيدة، قطرة ماء تهبط من مزراب.

في الداخل سطران مكتوبان بقلم أسود، بخط متزن لا يكشف عن صاحبه: «توقف عن نبش ما مضى. بعض الأبواب أُغلقت لسبب. اتركها مغلقة، ودع الأحياء يعيشون.» لم يكن في الورقة تهديد صريح، ولا وعد بأذى. وهذا ما جعلها أكثر إزعاجاً؛ كأن كاتبها يتحدث بلسان شخص يريد أن يحمي أحداً، وربما نفسه، من عودة الأسئلة.

قرأها سالم مرتين. لم يمزقها أو يخفها، بل وضعها قرب الرسالة المتفحمة. لم يعرف إن كان كاتبها يعرف شيئاً، أو إن كان يريد حماية أحد، وربما نفسه. لم يخرج يطارد يداً مجهولة؛ لم يرد أن يخترع للحقيقة باباً آخر.

جلس وحده في الورشة، تحت ساعة تتقدم دقيقة. فكر أن السؤال لا يمنحه حق إيذاء أحد أو انتزاع اعتراف، لكن ذلك لا يلزمه بالصمت. يستطيع أن يسأل بهدوء، ويصغي، ويحترم تردد الآخرين، ثم يواصل.

لاحظ ارتجاف أصابعه، فترك الكوب حتى استقرت يده. لم يعد يريد أن يتظاهر بأن الشجاعة تعني غياب الخوف. وضع الورقة في درج منفصل، وكتب: «لا أملك حق أن أقرر عنهم. أملك أن أطلب الحقيقة، وألا أهرب منها.»

في الصباح، اتصل بمريم. لم يضغط عليها. أخبرها بما وجد على بابه، وسأل إن كانت تريد تأجيل لقائهما. طال الصمت حتى ظن أن الاتصال انقطع. ثم سمعها تقول: «لا. إذا أجلنا كل شيء خوفاً، فلن يبقى إلا الخوف.»

ذهبت إليه بعد الظهر، تحمل حقيبة قماشية صغيرة. بدت أقل تعباً، أو ربما كان الضوء في الورشة ألين. لم تسأله عمن كتب الورقة؛ ولم يخبرها بما لم يعرفه. أخرجت من الحقيبة ملفاً بين صفحتين من ورق شفاف، ووضعتْه أمامه على الطاولة.

قالت: «هذه النسخة الكربونية. احتفظت بها عشر سنوات، ولم أعرف ماذا أفعل بها. لا أريدك أن تسميها براءة لأحد، ولا إدانة نهائية لأحد. اقرأها أولاً.»

ظهرت الكلمات باهتة، بعضها أزرق وبعضها رمادي، لكن التحذير بقي واضحاً: خلل متكرر في لوحة الكهرباء، ضرورة الفحص العاجل، وإيقاف الاستخدام إلى حين استبدال القاطع. وفي الهامش، أسفل رقم المعاملة، امتدت ملاحظة قصيرة بخط شاب مائل، كُتبت بقلم رصاص خفيف، لا يشبه خط مريم.

اقترب سالم من الورقة. لم يقرأ الكلمات بصوت مسموع. لم يعرف الخط، أو لم يثق بذاكرته بما يكفي ليقول إنه يعرفه. لكن شكل انحناءة الحرف الأخير استدعى في ذهنه طرف ذكرى لم تكتمل: يد صغيرة، ورق مسطر، وصوت مطر يضرب زجاجاً.

رفع عينيه إلى مريم. كانت تراقبه لا الورقة. أما الملاحظة، فبقيت بينهما، أضيق من أن تكون جواباً وأوسع من أن تُترك بلا سؤال.

لم تطلب مريم منه أن يصدقها، ولم يعدها سالم بأن الورقة ستغير شيئا. أعادها إلى غلافها الشفاف، وسألها إن كانت تقبل أن تحفظ نسخة منها مع بقية الإفادات. قالت إنها ستفكر، ثم أضافت أن الخوف لا يمحو ما عرفه المرء؛ إنه يؤجل فقط اللحظة التي يضطر فيها إلى حمله.

في طريق عودته، توقف عند واجهة البلدية. انعكس وجهه على الزجاج فوق إعلانات المعاملات، وبدا للحظة كأنه يقف داخل ملف لا يعرف صاحبه. أخرج دفتره وكتب تاريخ اللقاء، ثم ترك سطرا فارغا تحته. لم يكن يريد أن يملأ الفراغ بتخمين. كان يكفيه الآن أن يعرف أن التحذير وجد، وأن أحدا احتفظ بنسخة منه.

الفصل الخامس

البوصلة التائهة

«لا تشير الإبرة إلى الطريق الذي ضاع؛ إنها تذكّرك بأن الطرق لا تضيع وحدها.»

وصل الطرد بعد الظهر بقليل، حين كانت السماء فوق الزقاق بلون الرصاص، وحين راحت الريح تدفع ورق الصحف على الرصيف كما لو أنها تحاول أن تعيدها إلى أصحابها. لم يطرق ساعي البريد الباب. ترك الصندوق عند العتبة ومضى، وبقي سالم لحظة يراقب الشريط البني المشدود حوله.

كان يعرف حجم الطرد قبل أن يرفعه. صار جسده يتعلم وزن الأشياء التي لم يرها بعد، أو هكذا خُيّل إليه. حمله إلى طاولة الترميم، وقص الشريط بحذر. في الداخل، بين طبقتين من القماش، استقرت بوصلة نحاسية في علبة جلدية متشققة. لم يكن زجاجها مكسورًا، لكن الإبرة كانت تدور ببطء، تتوقف عند جهة، ثم ترتجف وتنحرف عنها.

على الورقة المطوية تحت العلبة كُتبت العبارة المألوفة: «أصلحه، وستفهم لمن يعود».

قلب سالم البوصلة بين أصابعه. على الغطاء خدش طويل، وفي طرفه بقايا ملح أو غبار أبيض. أما الإبرة، فلم تستقر حتى حين وضعها على الطاولة بعيدًا عن أدواته. دار رأسها نصف دورة، ثم تردد، ثم اتجه إلى زاوية الورشة حيث تتراكم دفاتر قديمة.

لم يكن في ذلك ما يستدعي الخوف؛ للبوصلة أسباب كثيرة كي تضل. لكن الفتى عند حافة صورة ليلى بدا له، للحظة، شبيهًا به. كانت ذكرى ناقصة؛ كلما حاول تسميتها تبدلت ملامحها.

فتح دفتره وكتب: «فريد ـ سائق التوصيل». كان الاسم قد ظهر في حديث يوسف عن ليلة دار السراج، ثم عاد في هامش ورقة قديمة عثر عليها داخل غلاف الساعة. لم يكن قد اتصل به من قبل. بحث عن الرقم الذي دوّنه من الورقة، وتردد، ثم ضغط زر الاتصال.

رد فريد بعد رنتين. بدا صوته خشنًا، كأن المكالمة أيقظته من غفوة.

قال سالم: «أنا سالم، من ورشة الترميم. أظن أن هذه البوصلة لك».

ساد صمت قصير.

«أي بوصلة؟»

«نحاسية، في علبة جلدية. عليها خدش عند الغطاء».

تنهد فريد. «كنت أظنها ضاعت قبل سنوات. تعال إلى المستودع القديم قرب محطة الحافلات، إذا كنت تريد أن تعرف قصتها. لا أحسن شرح الطرق على الهاتف».

كان المستودع محاذيًا لساحة شحن صغيرة، وقد صار نصفه مخزنًا للأثاث المستعمل. استقبله فريد عند الباب، رجل في أواخر الخمسينيات، عريض الكتفين، له عينان متعبتان ويدان لم تفارقهما رائحة الزيت. حين رأى البوصلة في يد سالم، مد يده إليها ثم توقف قبل أن يلمسها.

«ما زالت لا تعرف أين الشمال؟» قال.

«لا يبدو أنها عرفته يومًا».

ابتسم فريد بلا مرح. «كانت تنفعني حين كان الطريق يتغير تحت المطر. أو كنت أقول ذلك لنفسي. لو اتبعتُها تلك الليلة، لوصلت إلى المكان الخطأ».

أشار إلى طاولة عليها خريطة قديمة لوسط الحي. انتشرت عليها بقع ماء جافة، وامتدت خطوط حبر باهتة بين محطات التوصيل ومخازن الكتب ومداخل المباني. في منتصفها كُتب اسم «دار السراج»، وحوله أسماء بخطوط متقاطعة: يوسف، نادر، ليلى، مريم، فريد، أمينة. وكان هناك خط رفيع، كأنه رُسم بقلم أقل حبرًا، يصل إلى طرف الشارع حيث كانت ورشة سالم القديمة.

تقدم سالم، ولمس المسار الذي ينتهي عند المكتبة. قال فريد: «هذه ليست خريطة رسمية. رسمتها بعد الحادثة، حتى أفهم كيف صارت الصناديق في ذلك الممر، ومن كان عند أي باب. كنت أحسب أن ترتيب الوقائع سيجعلها أقل فوضى».

«هل احتفظت بها كل هذه السنوات؟»

«طيًّا في درج. كنت أفتحها أحيانًا، ثم أعيدها. لا تبرئني ولا تدين أحدًا وحدها».

أخذ فريد قلمًا وبدأ من ساحة التحميل. في تلك الليلة، كما روى، أوصل شاحنة صغيرة محملة بصناديق كتب مستعملة. كان المطر يشتد، والكهرباء تنقطع في المباني القريبة. يوسف، حارس المكتبة، طلب أن تُدخل الصناديق قبل أن ينسد الطريق. نادر كان قد أصلح الباب الجانبي قبل أسابيع مستخدمًا قطعة تثبيت مؤقتة، بعد أن تعذر الحصول على القطعة الأصلية. ولم يكن يعلم أن ضغط الباب من الداخل سيجعل المزلاج يتوقف عند آخر مسافة قصيرة.

قال فريد: «بدأتُ أُدخل الصناديق. سالم كان يساعدني. فتى سريع، يحمل أكثر مما ينبغي. خلل الكهرباء لم يبدأ عند الباب، كما سمعت لاحقًا. كان في اللوحة القديمة. انطفأت الأنوار، ثم عاد بعضها، ثم انطفأت. لا أعرف متى رأى يوسف الدخان بالضبط. قال إنه ظنه تماسًا بسيطًا في البداية، وتأخر قبل أن يرفع الإنذار».

لم يرفع فريد عينيه عن الخريطة. «وعندما بدأ المطر يدخل من الممر، قيل لي أن أغلق الباب الجانبي. لم أعرف من كان صاحب الطلب أولًا. ربما يوسف، وربما أحد العاملين. ظننته إجراء عاديًا لحماية الكتب. دفعت الباب حتى سمعت صوتًا، واعتقدت أن المزلاج ثبت. لكنه لم يثبت».

قال سالم: «أنت من أغلقه».

«نعم. وأنا لم أتحقق. لكن الباب لم يكن سليمًا، والإنذار تأخر، والكهرباء لم تُفحص كما ينبغي. لا أقول هذا كي أخرج نفسي من الحكاية. أقول إن ما حدث لم يكن يدًا واحدة أغلقت الباب ثم صنعت كل شيء».

رفع سالم بصره عن الخريطة. كانت العبارة قريبة من شيء سمعه في داخله منذ بدأ إصلاح الأشياء: أن تتوزع الأخطاء لا يعني أنها تتلاشى. لكل فعل صاحبه، ولكل تأخير أثره. لم يكن الاعتراف بحصة المرء طريقة لابتلاع حصص الآخرين، ولا ستارًا يخفي ما فعله هو.

أشار فريد إلى الممر الخلفي في الرسم. بعد دقائق من انقطاع التيار، سمعا طرقًا على باب غرفة المطالعة. هدى كانت في الداخل. لم يذكرها فريد بوصفها طفلة محاصرة؛ قال اسمها بهدوء، كأنه يريد أن يحفظ لها مكانًا خارج تلك الليلة أيضًا.

«سمعت الضربات»، قال. «لكنني لم أفهم أول مرة. كان ثمة ضجيج، وصناديق سقطت، والناس ينادون. يوسف بدأ يصرخ باتجاه الغرفة. حاولت دفع الباب، ولم يتحرك. عندها جاء سالم».

تشبث سالم بحافة الطاولة. من مكان بعيد، عادت إليه صورة لا تكتمل: ظلام، هواء حار، صوت قصير يتكرر. ثم فسحة صمت لا يعرف طولها. تذكر أنه كان هناك. لم يذكر بعد ما فعله في تلك الفسحة.

تابع فريد: «كان يوسف يضرب الباب بكتفه، وأنا أبحث عن عتلة. سالم وقف خلفنا لحظة. ثم عاد ومعه قطعة حديد، أو ربما كان يحملها منذ البداية. لا أريد أن أجمّل ما حصل. احتجنا أكثر من محاولة. انفتح الباب أخيرًا، وأخرجنا هدى. كان يوسف قد وصل إلينا قبل ذلك. لم يكن أحد منا وحده كافيًا».

«هل لديك صورة للممر؟» سأل سالم.

«ليلى صورت المكان قبل الحادثة، على ما أظن. لا أعرف إن كانت صورت ليلة الحادثة نفسها. أمينة احتفظت بسجلات المكتبة. ومريم كانت قد حذرت من اللوحة. يوسف أخطأ في تقدير الإنذار. نادر وثق بقطعة مؤقتة. وأنا أغلقت الباب ولم أتأكد. وأنت...»

توقف فريد، ولم يكمل.

كان سالم يحدق في الخريطة. ستة أسماء تشدها خطوط إلى دار السراج، لكن الخط السابع الرقيق يقترب من الورشة. خُيل إليه أن كل المسارات تنتهي عند صورة ليلى: الفتى الذي يشبهه، وجهه المحجوب بطرف الكادر. ربما كان هو. ربما رفع المزلاج، أو وقف هناك، أو فعل شيئًا لا يستطيع تذكره. شعر برغبة في أن يحسم الأمر فورًا، أن يقول: أنا الفتى، أنا السبب. كان ذلك

أسهل من احتمال أن تكون الحقيقة أكثر تعقيدًا، وأشد إيلامًا لأنها لا تقدم له حكمًا واحدًا ينتهي عنده كل شيء.

قال أخيرًا: «في الصورة عند ليلى، هناك فتى. ظننت أنني هو».

أومأ فريد. «قد تكون أنت. لكن التشابه ليس ذاكرة. لا تكتب حكمك قبل أن ترى ما بقي عند أمينة. ولا تجعل خوفك من النسيان دليلًا».

خرج سالم إلى الساحة ليأخذ نفسًا. كانت السماء قد بدأت تمطر، لكن المطر هذه المرة خفيف، كأنه يجرب الأرض. لمح عند الجدار ملصقًا جديدًا لمركز فنون الحي: ورشة مجانية للأطفال، تقودها هدى. وتحت الاسم صورة ليد تلطخ ورقة بألوان زرقاء وصفراء. لم تكن صورة وجهها، بل يدًا تمسك فرشاة، وعلى الورقة بيت صغير بنوافذ مضيئة.

«هدى ترسم الآن؟» سأل حين عاد إلى الداخل.

قال فريد: «تعلّم الأطفال. بدأت بالرسم قبل أن تعود إلى الكلام أمام الناس. لا أعرف إن كانت تحب الحديث عن المكتبة. لا تسألها كأن حياتها تبدأ عند الباب الذي علق».

لم يكن ذلك يمحو ما حدث أو يعد بأن كل شيء صار بخير، لكنه كان شيئًا قائمًا الآن: هدى تعلّم الأطفال الرسم وتفتح لهم مكانًا يخصهم.

عند عودته إلى الورشة، وضع الخريطة قرب المصباح. كانت البوصلة لا تزال في علبتها، والإبرة تواصل انحرافها كلما اقتربت منها يده. جرّب أن يبعدها عن أدوات الحديد، ثم فتح الغطاء الخلفي بحذر. لم يجد عيبًا واضحًا في المحور. تحت الحلقة المعدنية الداخلية، علق خيط أزرق قصير وورقة رفيعة مطوية. سحبها بالملقط، فظهرت على ظهرها حروف محفورة بالكاد تُقرأ.

سالم. ثم حرفان من اسمه الأوسط، كان يكتبهما على أدواته حين كان صغيرًا.

انقبضت أصابعه. لم تكن البوصلة ملك فريد، إذن؛ لعلها كانت لسالم قبل أن تختفي. قلب الغطاء، فرأى الحروف نفسها محفورة قرب المفصلة. عرف ميلان الألف وطريقة ضم اللام؛ خطه القديم.

حدق في البوصلة، ثم في الخريطة التي تصل الأسماء الستة بالمكتبة، وفي الخط الرفيع الذي يخرج منها نحوه. لم تعد الإبرة تشير إلى الشمال، لكنها صارت تشير إلى سؤال يخصه. وفي الدرج السفلي، تحت أوراق الطرود السابقة، استقر الصندوق السادس الذي وجده عند عودته إلى الورشة: صندوق صغير داكن، تركه ساعي البريد عند العتبة. حمل بطاقة باسم «أمينة»، ولم يفتحه سالم بعد. بدا قفله أقدم من بقية الأشياء.

أعاد سالم البوصلة إلى القماش، وأغلق العلبة. بقيت أصابعه على الغطاء لحظة أطول مما ينبغي، عند حروفه المحفورة. ثم سحب الدرج حتى انكشف الصندوق المغلق، كأن الطريق الذي بدأ بخريطة فريد لم يكن سوى الخطوة الأخيرة قبل أن يواجه ما تركه لنفسه.»

لم يفتح الصندوق في الحال. أخرج الخريطة من جديد، وتتبع الخطوط من أسماء الشهود إلى دار السراج، ثم إلى اسمه. لم تعد العلامات تبدو له طريقا يرسمه شخص غائب؛ بدت كأنها أسئلة تركها أناس مختلفون، كل منهم عند النقطة التي توقف فيها عن الكلام.

وضع البوصلة قرب الصندوق، لا فوقه. للمرة الأولى لم يحاول أن يجعل الإبرة تستقر على جهة واحدة. كتب في دفتره: «سأفتح ما تركته لنفسي، لكنني لن أكون وحدي في تفسيره». ثم دفع الكرسي إلى الطاولة، وأبقى يده على الغطاء المغلق. كان الصباح قريبا، وكان عليه أن يبدأ من الحقيقة التي يستطيع احتمالها.

الفصل السادس

الصندوق المغلق

«أحياناً لا يُغلق الصندوق كي يخفي ما فيه، بل كي يمنح الحقيقة وقتاً كي تجد من يفتحها.»

لم تكن البوصلة تشير إلى الشمال، ولا إلى أي جهة يمكن الوثوق بها. بعد أن أصلحها سالم، استقرت إبرتها على اتجاه واحد كلما تركها فوق طاولة الورشة: نحو الشرق، نحو مبنى دار السراج القديم. وحين أدارها بيده، ترددت لحظات ثم عادت إلى موضعها، كأنها لا تدله على طريق بقدر ما تذكره بأن الطريق ما زال هناك.

كان الطرد السادس قد وصل إلى الورشة في الصباح: صندوق خشبي صغير داكن، مربوط بخيط أخضر، وعلى بطاقته اسم «أمينة». لم يكن في داخله سوى ورقة تقول: «أصلحه، وستفهم لمن يعود». حمله سالم معه، وقد بدا القفل أقدم من أن يفتح بالقوة.

أما فريد، فقد دلّه على عنوان آخر. كتب الاسم على قصاصة ورق من دفتره، ثم دفعها عبر الطاولة.

قال: «أمينة. كانت تحفظ سجلات الدار، قبل أن تُنقل إلى المخزن البلدي. إذا بقي شيء من تلك الليلة، فربما تعرف أين وُضع.»

«هل تظن أنها ستتكلم؟»

رفع فريد كتفيه، ولم يخفِ عجزه عن الإجابة. «لا أعرف. لكنها لم تكن ممن يرمون ورقة لمجرد أن أحداً طلب منهم ذلك.»

ظل الاسم في ذهن سالم طوال الطريق: أمينة. لم يكن قد زار دار السراج منذ سنوات، ولم يزر مخزنها البلدي قط. حمل البوصلة في جيبه، لا لأنه يحتاجها، بل لأن تركها في الورشة بدا أشبه بإنكار ما قادته إليه.

وجد أمينة في غرفة ضيقة داخل مبنى أرشيف الحي، بين رفوف معدنية وصناديق مرقمة. كانت امرأة في أواخر الستين، يحيط بها هدوء من اعتاد أن يصغي قبل أن يجيب. لم تتعرف إليه أول الأمر. وحين ذكر اسم دار السراج، رفعت عينيها إليه ببطء.

«أنت سالم؟»

هز رأسه.

«كنت فتى نحيفاً، كثير الحركة، يصر على إعادة الكتب إلى رفوفها بترتيبها الصحيح.» تأملته، ثم أضافت: «كبرت.»

لم يدرِ ماذا يقول. كانت الجملة بسيطة، لكن وقعها أشبه بفتح باب على رائحة غبار قديم.

أشار سالم إلى الصندوق الذي أحضره معه، ووضعه على الطاولة.

«هذا وصلني اليوم، وعلى بطاقته اسمك.»

تأملت أمينة الخدوش المتقاطعة على غطائه. «كان من صناديق دار السراج. ظننت أنه بقي في المخزن القديم بعد نقل الأرشيف. احتفظت بمفتاحه، لكنني لم أره منذ سنوات.»

لم يكن في الصندوق مفتاح. فحص سالم القفل، وتحسس موضع التآكل، ثم أدار لسانه بأداة رفيعة حتى انفرج بصوت جاف. لم يكسره؛ فقط أعاد إليه طريقه.

لم يكن في الصندوق شيء ثمين بالمعنى الذي تقصده الخزائن. كانت فيه أوراق مربوطة بخيط، ودفتر سميك متشقق الغلاف، ونسخة كربونية زرقاء انثنت أطرافها، وورقة منفصلة تتوسطها أوقات مكتوبة بقلم رصاص. وفي أسفل الصندوق، بين لوحين من الورق المقوى، صورة فوتوغرافية قديمة لصفحة سجل.

مد سالم يده نحو الدفتر، ثم تراجع قليلاً. لم تكن أمينة تمنعه، لكنها راقبته بعينين متعبتين.

«هذا سجل الحادثة الأصلي؟»

قالت: «سجل المناوبة. أخذته من الدرج قبل أن تُجمع الأوراق لإعداد التقرير. لم أكن أعرف يومها ما الذي سيحذف أو يتغير. قلت لنفسي إن حفظه لا يعني أنني سأستخدمه.»

فتح الدفتر عند صفحة تحمل تاريخ الليلة التي احترق فيها جزء من المكتبة. كانت الكتابة سريعة، متفاوتة الضغط، وفيها آثار ماء أو دخان. قرأ سالم الأسماء، وحركة الموظفين، وملاحظة قصيرة عن انقطاع التيار عند الثالثة وأربع عشرة دقيقة. لم يكن ثمة حديث عن حريق متعمد، ولا عن باب مفتوح على مصراعيه، كما لمح التقرير الرسمي لاحقاً. كانت هناك أسطر لا تنتهي، وفراغات، وتعليقات هامشية بخطين مختلفين.

وضعت أمينة النسخة الكربونية أمامه.

«تحذير الكهرباء؟»

«نسخة مريم. وصلت إلى الدار قبل أسابيع من الحادثة. احتفظت بها في ملف الصيانة. لم أرسلها إلى أحد حينها. كان ينبغي لي أن أفعل.»

لم يكن في صوتها دفاع ولا طلب للمسامحة. تناول سالم الورقة بحذر. ظهر فيها تحذير واضح من خلل في لوحة الكهرباء، ومن ضرورة فصل التيار حتى استبدال القطعة المتضررة. تطابقت حافة الحرق مع ما رآه في الرسالة التي أصلحها، كأن الورقة التي نجت من النار عادت لتجد نصفها الآخر.

أما صفحة التوقيتات، فكانت أكثر إرباكاً. دوّنت عليها أوقات متفرقة: «03:14 انقطاع التيار»، «03:17 بلاغ الحارس»، «03:21 فتح المدخل الجانبي»، «03:26 خروج الطفلة مع يوسف وفريد». توقف سالم عند السطر الأخير.

في التقرير الرسمي الذي قرأه في أوراق سابقة، قيل إن الإخلاء بدأ قبل الثالثة والنصف بقليل، وإن غرفة المطالعة كانت خالية عند اكتشاف الدخان. هنا كانت الأوقات مختلفة، والعبارات أقرب إلى وصف ما حدث كما رآه شخص من الداخل. لم تكن مطابقة للتقرير، ولا حتى منسجمة معه.

«من كتب هذه؟» سأل.

أجابت أمينة: «أنا. كنت أدوّن ما يصلني، ثم أضفت بعض الأوقات مما تذكره العاملون. لم أضعها في التقرير النهائي. قالوا إنها غير مؤكدة، وأن نشرها سيعيد فتح الموضوع ويغلق الدار إلى الأبد.»

لم يرفع سالم نظره عن الورقة. بقيت الصورة الفوتوغرافية في قاع الصندوق. التقطها. كانت لقطة مكبرة لصفحة سجل المناوبة، وفي طرفها ختم المستودع وتاريخ تصوير سابق لإعداد التقرير الرسمي. ظهر فيها اسم هدى، وإلى جواره عبارة: «غرفة المطالعة». لم تكن في المدخل، كما ورد في الملخص النهائي. كانت في الغرفة التي عرفها سالم من مخطط الدار، الغرفة ذات الباب الذي لا يفتح بسهولة إذا لم يستقر مزلاجه.

شعر بأن الهواء صار ضيقاً، مع أن النافذة كانت مفتوحة. أعاد الصورة إلى الطاولة، لكن يده بقيت فوقها.

قالت أمينة بهدوء: «لم أغيّر السجل. ولم أجرؤ على أن أقول يومها ما أعرفه. كنت أخاف أن يؤدي ذلك إلى إغلاق الدار، ثم صار خوفي عادة. لا أقول هذا كي أطلب منك أن تعذريني.»

هز رأسه، ولم يعرف إن كان يوافقها أم يطلب منها الصمت.

عندئذ سمعا وقع خطوات في الممر. ظهرت نوال عند الباب، تحمل حقيبة جلدية صغيرة. لم تفاجأ برؤية الصندوق، لكنها توقفت حين رأت سالم يحدق فيها.

قالت: «كنت أرجو أن أراك قبل أن تفتح الصندوق.»

«أنت تعرفين ما فيه؟»

«أعرف بعضه.» جلست قرب أمينة، ثم أضافت: «وأعرف كيف وصلت إليك الأشياء.»

لم يرد. انتظر بقية الجملة، كأنها ستأتي لتكمل ما عجز عن قوله.

قالت نوال: «أنا من أرسلت الطرود، واحداً بعد الآخر. اشتريت الأشياء، ورتبتها، ودفعت أجرة إصلاحها. لم أخترع الحكاية التي تحملها. كانت هناك رسالة منك.»

ضحك سالم ضحكة قصيرة بلا مرح. «مني؟»

«كتبتها بعد الحادثة، حين كنت في الثامنة عشرة. جئت إلى الدار بعدما بدأت أعمل في الأرشيف، وطلبت مني أن أحتفظ بها. قلت إنني قد لا أستطيع فهمها الآن، لكنني سأفهمها إذا احتجت إليها يوماً.»

هز رأسه. «لا أذكر أنني كتبت رسالة كهذه.»

لم تقل نوال إنه يتظاهر، ولم تنظر إليه كمن قبض على كذبة. فتحت حقيبتها وأخرجت ظرفاً قديماً، مصفرّ الأطراف، عليه اسمه بخط متردد. لم تدفعه نحوه. وضعته على الطاولة بينهما، وتركته هناك.

«لم أرسلها لأنني ظننت أنك نسيت»، قالت. «أرسلت الطرود لأنك كتبت: إذا عدت يوماً إلى الورشة، وبدأت تتصرف كأنك لم تسمع طرق الباب، فأعيدي إليك الأغراض الستة، واتركي لك الإطار الفارغ. لا تجبريه على شيء. فقط ضعيها في طريقه.»

بقي سالم ينظر إلى الظرف. لم يكن الخط غريباً تماماً. انحناءة السين، وطريقة إغلاق الميم، والمسافة الصغيرة قبل اسمه؛ رأى شيئاً منها على بطاقات الطرود، وعلى الورقة التي رافقت البوصلة. حاول أن يقول إن أحداً يستطيع تقليد خطه، لكن الكلمات لم تخرج.

«كنت في الثامنة عشرة»، قال أخيراً. «ربما كتبت أشياء كثيرة. كنت مرتبكاً.»

«ربما»، قالت نوال. لم تزد.

«وهل أخبرتك بما حدث؟»

«لم تخبرني بكل شيء. طلبت مني أن أحفظ الرسالة، وأن لا أحولها إلى اتهام. كتبت أن الأشخاص الذين سيظهرون في الطريق ليسوا خصوماً، وأن لكل واحد منهم جزءاً من الحقيقة. هذا كل ما أستطيع قوله.»

لم يكن في كلامها ما يطمئنه، ولا ما يدفعه إلى الوراء. بدا له أن إنكاره، الذي بدأ برفض الرسالة، أخذ يتغير شكله. لم يعد يستطيع أن ينفي خطه، لكنه لم يستطع أن يفتح الظرف. كانت دهشته تتكمش لتصير سؤالاً، ثم تتسع من جديد إلى خوف من الإجابة.

أدار الورقة بين أصابعه من غير أن يفك الختم. «أنتِ رتبت كل هذا؟»

«رتبت ما طلبته مني. أما ما ستفعله به، فهذا لك.» قالتها ببساطة. «إن أردت أن تأخذ الأوراق، فهي لك. وإن أردت أن تتركها هنا حتى الغد، فسأبقيها محفوظة. لن أطلب منك أن تسامح أحداً، ولا أن تسامح نفسك قبل أن تعرف.»

طأطأ سالم رأسه. تذكر للحظة صوتاً خفيفاً خلف باب، أو ربما كان صوت المطر على الخشب. لم يأتِه مشهد كامل، ولا اسم، بل إحساس جسده واقفاً في موضع لا يتحرك فيه. قبض يده على حافة الطاولة، ثم أرخاها. لم يلاحقه أحد بالسؤال.

أخذ الظرف أخيراً. كان خفيفاً على نحو غير معقول، كأن رسالة قديمة لا وزن لها حتى يلمسها صاحبها. وضعه إلى جانب صورة السجل، ولم يفتحه. ثم أعاد الأوراق إلى الصندوق، واحدة تلو الأخرى، إلا أن صورة صفحة المناوبة بقيت أمامه. لم يعد التقرير الرسمي يبدو رواية مكتملة؛ صار ورقة اختارت أن تترك أشخاصاً خارج الغرفة.

نهضت نوال لتغادر. بقي سالم جالساً أمام الصندوق المفتوح، والظرف القديم الذي يحمل خطه بين يديه. لم يفتحه بعد. قال إن عليه أن يعود إلى الورشة، فأومأت نوال ولم تطلب منه أن يقرأه أمامها.

عند الباب، توقفت لحظة وقالت: «ما كتبته لنفسك لا يطالبك بأن تنفذه دفعة واحدة. فقط لا تدع الخوف يقرر عنك مرة أخرى.»

خرجت، وبقي سالم مع سجل المناوبة والرسالة التي لا يتذكر كتابتها. للمرة الأولى منذ وصول الطرود، لم يبحث عن غرض آخر يصلحه. جلس يصغي إلى المساء، وإلى السؤال الذي صار أقرب من أن يضعه في درج.

الفصل السابع

القطعة الأخيرة

«ليست كلُّ الأشياء التي نصلحها تعود كما كانت؛ بعضها يعلّمنا فقط كيف نترك موضع الكسر مرئياً.»

ظلّ الطرد على منضدة الورشة حتى انطفأ ضوء العصر عن الزجاج. لم يكن أكبر من صندوق الأحذية، ولا أثقل منه، لكن سالم لم يمدّ يده إليه. مرّ حوله مرات كثيرة، يلتقط مفكاً لا يحتاجه، يمسح بقعة لا وجود لها، يعيد ترتيب علب البراغي بحسب مقاساتها. وفي كل مرة كانت عيناه تقعان على البطاقة المربوطة بالخيط: «أصلحه، وستفهم لمن يعود».

لم تكن في الطرد قطعة مكسورة.

حين فتحه أخيراً، ظهر إطار مرآة خشبي، قديم، خالٍ من الزجاج. بقيت في زواياه الأربعة آثار مسامير صدئة، وعلى الحافة السفلى خدش طويل، كأن شيئاً حاداً مرّ عليه ثم عدل عن إكمال طريقه. كان خشب الجوز داكناً من أثر العمر، لا من الطلاء. قلبه سالم بين يديه، فوجد ورقة مطوية في جوفه، مثبتة خلف لوح رقيق.

عرف خطّ الرسالة قبل أن يقرأها. انحدار الحروف، النقطة التي تتأخر عن موضعها، وطريقة كتابة السين كأنها درج صغير. خطّه هو، لكن خط صبي لم يعد يعرفه إلا من توقيع قديم على سجل المدرسة.

«أصلحتَ أخطاء الستة... الآن انظر في الفراغ، وأصلح الكسر الذي بدأ منه كل شيء».

أعاد قراءة العبارة، ثم قلب الورقة. لا تاريخ، لا اسم. لم يكن بحاجة إليهما. أحسّ أن الورشة ضاقت، وأن الأشياء الستة التي رتبها على الرف المقابل لم تعد ستة أشياء متفرقة، بل ستة أبواب تنفتح على جدار واحد.

أنزلها واحداً واحداً ووضعها على المنضدة. الساعة عند 03:14. المفتاح المعوج. المرآة المشروخة. الرسالة التي أكل النار طرفها. البوصلة التي لا تثبت على الشمال. الصندوق الذي ظل مغلقاً حتى خرج منه سجل دار السراج. وضعها في صفّ، وترك إلى جانبها الإطار الفارغ. لم يكن ينقص الإطار زجاج فحسب. كان يفتقد وجهه.

تقدم نحو الساعة. دارت عقاربها في ذاكرته، لا في معدنها. الثالثة وأربع عشرة دقيقة؛ زمن أوقفه في داخله، ثم أقنع نفسه، عاماً بعد عام، أنه لا يتذكر شيئاً. قرب المفتاح، وعرف في اعوجاجه باباً أغلقه على ذاكرته. المرآة لم تكن قد شُرخت وحدها؛ كان قد تهرب من النظر في الجزء الذي يظهر فيه هو. الرسالة المحترقة كانت محاولة محو لا تنجح، والبوصلة التي تاهت لم تكن تشير إلى طريق، بل إلى عجزه عن اختيار وجهة. أما الصندوق فكان ما كتمه الجميع، ومن بينهم هو، باسم حماية دار السراج.

لم تظهر ذكرى كاملة. جاءت في شظايا لا تتطابق أطرافها: رائحة ورق مبتل، مطر يضرب النوافذ، كفّ صغير على مزلاج بارد. كان فتى متطوعاً في الدار، يسرع بحمل الصناديق حين بدأ المطر. رفع المزلاج الجانبي كي يمرّ فريد، ثم سمع أحد الكبار يأمر بإغلاق الباب. أعاده إلى موضعه، على عجل، لكنه لم يختبره. لم يثبت تماماً.

في البداية لم يكن هناك سوى صوت ارتطام، ثم انقطاع للضوء، ثم وجوه تتحرك في العتمة. صفارة لم تكتمل. أحدهم يقول إن الأمر تماس كهربائي بسيط. كان سالم قد صار أكبر من خوفه في خياله، لكن جسده في الذكرى لم يكن سوى جسد فتى نحيل، لا يعرف ماذا يفعل بيديه.

ثم سمع الطرق.

ثلاث ضربات، متباعدة. من خلف باب غرفة المطالعة.

مدّ يده في الذاكرة نحو المقبض، وتوقف. لم يكن التوقف طويلاً في الزمن؛ لحظات قليلة لا أكثر. لكنها امتدت في رأسه عشر سنوات، حتى صارت عمراً كاملاً من الصمت. رأى الباب،

ورأى انعكاس الضوء البرتقالي في زجاجه، ورأى نفسه يفكر أن الدخان ربما في الجهة الأخرى، أن الباب قد يكون ساخناً، أن أحداً أكبر منه سيعرف ما ينبغي فعله. خاف أن يفتح، وخاف أن يكون الوقت فات، وخاف أن يختار اختياراً يزيد الأمر سوءاً.

ثم عاد الصوت، أعلى هذه المرة.

لم يعد وحده. يوسف كان عند الممر، يصرخ طالباً إخلاء القاعة، وفريد يركض من ناحية المدخل بعد أن انتبه إلى أن الباب لا ينفتح كما ينبغي. سالم تراجع خطوة، ثم عاد. لا يتذكر من وصل إلى المقبض أولاً؛ يتذكر فقط يداً كبيرة دفعت كتفه إلى الجانب، ويد يوسف على المزلاج، وصوت فريد وهو يقول: «معاً». انفتح الباب بعد محاولتين. كانت هدى خلفه، صغيرة، مغطاة بالسخام، تنظر إليهم دون أن تصدر صوتاً. حملها يوسف، وساعدهم فريد على إخراجها إلى الخارج.

نجت هدى. لم يمت أحد. لكن نجاتها لم تجعل ما حدث خفيفاً، ولم تمحُ شهوراً أعقبت الحادثة عجزت فيها عن الكلام، ولا سنوات احتاجت فيها لتستعيد ثقتها بالأماكن المغلقة. ولم تمحُ أيضاً مسؤولية سالم عن المزلاج، ولا تلك اللحظات التي تجمد فيها. لم تكن القصة أن فتى ارتكب خطأً منفرداً فصار وحده سبب كل شيء. خلل الكهرباء، وتأخر الإنذار، وتقارير الكبار التي خافت على نفسها وعلى المكتبة، وأفعال أشخاص كثيرين، كلها كانت في الغرفة نفسها. لكن ذلك لم يعفِه من حصته.

جلس سالم على الكرسي. انتبه إلى أصابعه؛ كانت تقبض على الرسالة حتى تجعدت حافتها. فتح كفه ببطء، ووضع الورقة مستوية.

قال الصوت القديم في داخله: «ها قد عدت أخيراً. هل ستقول لهم إنك كنت خائفاً؟»

لم يكن صوتاً من الخارج، ولا زائراً من ماضٍ غامض. كان صوته نفسه، أرفع قليلاً، كأنه يأتي من آخر ممر طويل.

«كنت خائفاً»، قال سالم.

«وهل يجعل ذلك ما فعلته أقل؟»

«لا.»

«وهل ستجعل من نفسك المذنب الوحيد، كما فعلوا بك؟»

تأخر سالم في الإجابة. نظر إلى الأشياء الستة. «لا. لن أختبئ خلف ذنب الآخرين، ولن أحمل ذنبهم بدلاً منهم.»

سكت الفتى في داخله، أو لعل سالم هو الذي توقف عن مطالبته بأن يجيب عن كل شيء. مدّ يده إلى ساعة يوسف، وأعادها إلى مكانها في الصف. لم يحاول إصلاحها لتدور. كانت عقاربها شاهداً، لا عطلاً ينبغي محوه.

في صباح اليوم التالي، ذهب إلى بيت نوال. فتحت له الباب وهي ترتدي معطفاً خفيفاً، وفي يدها دفتر قديم. لم يسألها كيف عرفت أنه جاء؛ ربما كانت تنتظره، وربما لم تكن. وضع الإطار على الطاولة بينهما.

قال: «وجدت الرسالة.»

أومأت. «كتبتها حين كنت في الثامنة عشرة. طلبت مني أن أحتفظ بها، وأن أرسل إليك الأشياء إذا رأيتك تعود إلى الترميم وتبدأ بالابتعاد عن السؤال.»

«كنتِ تستطيعين أن تخبريني.»

«نعم.» لم تدافع عن نفسها. «وكان يمكن أن أخبرك أبكر. خفت أن أفتح باباً لا أعرف كيف أغلقه، وخفت أيضاً أن أؤذيك بما لم تكن مستعداً لسماعه. هذه ليست حجة كافية. فقط ما حدث.»

جلس قبالتها. «هل كنت تعرفين عن هدى؟»

«كنت أعرف أنها خرجت حية، وأعرف أن صوتها غاب مدة. لم أكن أعرف كل ما عاشته بعد ذلك. حين عادت تسأل عن السجل، أدركت أن الصمت لم يحم أحداً كما أقنعت نفسي.»

لم يقل لها إنه يسامحها. لم يكن ذلك ما جاءت تطلبه، ولم يكن ما يملك أن يمنحه نيابة عن الآخرين. سألها إن كانت مستعدة أن تشهد في طلب تصحيح السجل، فأجابت بأنها ستفعل. ثم فتح دفتره ودوّن ما قالته، لا ليصنع خاتمة مرتبة، بل كي لا يعود إلى تحويل الصمت إلى رواية مريحة.

كان لقاء نوال قد أراح شيئاً، لكنه لم يفتح الطريق كله. بقيت هدى.

وجدها في قاعة مؤقتة قرب الحي، تجهز أعمالاً لورشة رسم للأطفال. كانت تعلق أوراقاً بيضاء على حبل، وتشرح لطفلة كيف تترك مساحة حول اللون كي يتنفس. حين رأته، لم تترك ما في يدها، ولم تبتسم. أشارت إلى مقعد قرب الباب.

انتظر حتى انتهت من مساعدة الأطفال، ثم قال: «هدى، هل يمكنني أن أتحدث معك؟ وإذا لم ترغبي، سأغادر.»

خلعت قفازيها. «قل ما جئت لتقوله.»

لم يقترب أكثر. «كنت متطوعاً في دار السراج. أنا الذي أعدت المزلاج بعد مرور الصناديق. لم أختبره. وحين سمعتك خلف الباب، تجمدت لحظات. ثم عدت مع يوسف وفريد. لا أقول هذا لأخفف ما كان عليك، ولا لأطلب منك أن تريحيني. أنا آسف لأن خوفي أخّرني، ولأنني عشت سنوات أترك الآخرين يحملون رواية ناقصة، بينما لم أكن أواجه الجزء الذي يخصني.»

ظلت تنظر إليه. لم تكن في وجهها قسوة، لكنه لم يرَ فيه دعوة إلى الاقتراب. قالت: «أتذكر الباب. وأتذكر أنني سمعت أصواتاً، ثم لم أعد أعرف أيها كان في الخارج وأيها في رأسي.»

أخفض عينيه. «لا أستطيع أن أقول لك إنني أعرف كيف كان ذلك.»

«جيد. لأنك لا تعرف.» سحبت كرسياً وجلست، تاركة بينهما المسافة نفسها. «أنا لا أريد أن أكون مشهداً في ذاكرتك يساعدك على الشعور بأنك صرت أفضل. لم تكن حياتي كلها تلك الغرفة.»

«أعرف.»

«لا أعرف إن كنت أستطيع أن أسامحك. ولا أريد أن أقرر ذلك الآن.»

«ليس عليك أن تقرري.»

نظرت إلى يديه. «ما الذي ستفعله؟»

«سأطلب تصحيح السجل رسمياً. وسأذكر ما فعلته وما لم أفعله، ومن كان هناك. ثم أريد أن أشارك في إعادة فتح الدار، إذا وافق أهل الحي. لا لأعيد لك شيئاً لا يمكن إعادته.»

أومأت هدى مرة واحدة. «ابدأ بالسجل. ولا تكتب اسمي في إعلان الافتتاح قبل أن تسألني.»

«لن أفعل.»

لم تمد يدها، ولم تمنعه من الرحيل. كان هذا كافياً لهذه اللحظة، لا أكثر. خرج سالم من القاعة من دون أن يلتفت ليتأكد إن كانت تراقبه.

بدأ طلب تصحيح السجل بزيارة البلدية. لم تكن الأوراق درامية: إفادات، نسخ كربونية، محضر قديم، أسماء وأختام، خانة فارغة للتوقيع. لكنه قرأ كل سطر قبل أن يوقع. كتب أن المزلاج لم يكن ثابتاً بعد إعادته، وأنه هو من أعاده. كتب أيضاً أن تعطل الكهرباء سبق الحادثة، وأن الإنذار تأخر، وأن التقارير اللاحقة لم تسجل كل ما وقع. وقّع يوسف، وقدّم فريد إفادته، وأحضرت مريم نسختها الكربونية، وأخرجت ليلى الصورة التي احتفظت بها. شهدت نوال بما تعرفه. لم يتحولوا إلى أبطال بمجرد قول الحقيقة؛ فقط توقفوا عن تركها ناقصة.

أما دار السراج، فكانت جدرانها تحمل آثار الرطوبة، والقاعة الشرقية مغلقة بألواح خشبية. اجتمع أهل الحي في ساحة الدار بعد الظهر. بعضهم أراد مكتبة كما كانت، وبعضهم رأى أن المكان يحتاج إلى مساحة للأطفال، وطلبت هدى أن تشارك مجموعة الفنون في تصميم القاعة، لا أن يُفرض عليها دور رمزي. تشاجروا قليلاً حول الميزانية، ثم قسموا العمل: تنظيف الساحة،

فحص الأسلاك، رفع طلب الترميم، وجمع الكتب. لم يكن في الأمر وعد أن كل شيء سينجح. كان هناك جدول بأسماء وأيام، ومفتاح جديد للباب الجانبي.

في المساء عاد سالم إلى الورشة. لم يركّب زجاجاً في الإطار. نظف الخشب، ثبّت الوصلات المرتخية، وأبقى الخدش ظاهراً. ثم وضعه على المنضدة بحيث يواجه الباب. إلى جانبه ترك الورقة البيضاء التي كان قد وضعها تحت الرسالة كي لا تتلطخ.

أطفأ المصباح، وفتح باب الورشة. كان الزقاق قد ابتلّ بمطر خفيف. الهواء البارد حمل رائحة التراب والخبز من المخبز عند الزاوية. خرج، وأدار المفتاح في القفل، ثم وضعه في جيبه. كانت هذه أول مرة منذ زمن طويل يغلق فيها الورشة ويغادرها من دون أن يعد نفسه بالعودة بعد دقائق.

مشى نحو دار السراج. عند المدخل لم يجد باباً مفتوحاً بعد، وجد ألواحاً تنتظر رفعها، ونافذة تحتاج إلى إصلاح، وأشخاصاً سيأتون صباحاً بأدواتهم. أخرج هاتفه، وفتح رسالة نوال التي تضم موعد اجتماع العمل. لم يكن في الموعد ما يضمن أن الماضي سيهدأ. كان فقط صباحاً يمكن أن يبدأ.

في الورشة، بقي الإطار فارغاً. لا مرآة تعيد إلى أحد صورته كاملة، ولا ورقة تفرض عليه حكاية بعينها. ترك سالم القلم بجوارها، لا طلباً لاعتراف لا يريد صاحبه قوله، ولا دعوة إلى أن يسلّم أحد أسراره للآخرين. كانت الورقة هناك لمن شاء أن يكتب لنفسه، أو أن يتركها بيضاء.

وعند أول ضوء، سيعود أهل الحي إلى الباب ومعهم مفكاتهم وفرش الطلاء. هذه المرة، سيختبرون المزلاج قبل أن يتركوه، ثم يفتحون الدار على مهل.

رسالة من المؤلف

إلى القارئ الكريم،

إذا وصلت إلى هذه الصفحة، فقد عبرت مع سالم طريقا لم يكن بحثا عن الأشياء المفقودة وحدها، بل عن الحقيقة التي تركها الخوف والصمت ناقصة. كانت الطرود السبعة أبوابا إلى ذاكرة مشتركة؛ وراء كل واحد منها حكاية ومسؤولية، ولم يكن إصلاح ما انكسر محوا لأثره، بل بداية لفهمه.

أردت لهذه الرواية أن تذكرنا بأن الاعتراف لا يجعل الماضي سهلا، وأن المساءلة لا تعني أن نحمل شخصا واحدا كل أخطاء الآخرين. لكل إنسان نصيبه من الحقيقة، ولكل متأذ حقه في أن يختار متى وكيف يقترب من الحكاية. أما الإصلاح، فيبدأ حين نكف عن ترك الأبواب موارية أمام الأذى، ونمد أيدينا معا لما يمكن إنقاذه.

شكرا لأنكم رافقتم سالما حتى دار السراج، ولأنكم منحتم هذه الحكاية وقتا من قراءتكم. لعل كل صفحة تترك فيكم سؤالا نافعا، أو رغبة صغيرة في قول الحقيقة، أو في مساعدة مكان ما على أن يفتح من جديد.

مع خالص التقدير،

المؤلف

علي إبراهيم خليل الخفاجي

© 2026 – جميع حقوق التأليف والنشر محفوظة للمؤلف: علي إبراهيم خليل الخفاجي.
لا يسمح بنسخ الكتاب أو إعادة نشره كاملا دون إذن خطي من المؤلف، مع مراعاة الاقتباسات المسموح بها قانونا.



في زقاقٍ منسي، يقضي سا لم أيامه في ترميم الأشياء المكسورة...
إلى أن تصله سبعة طرودٍ من مجهول.
كل طردٍ يحمل غرضاً تالفاً، وقصةً مخفية، وذنبًا هرب صاحبه منه لسنوات.
لكن حين يفتح الطرد السابع، يكتشف أن الحقيقة لم تكن يوماً في الماضي...
بل كانت تنتظره هو.

بعض الكسور لا تُرمَّم لتُخفى... بل لتروي الحكاية.

علي ابراهيم خليل الخفاجي

امسح الرمز لزيارة
مكتبتي الرقمية، حيث تجد
جميع مؤلفاتي في مكان واحد.